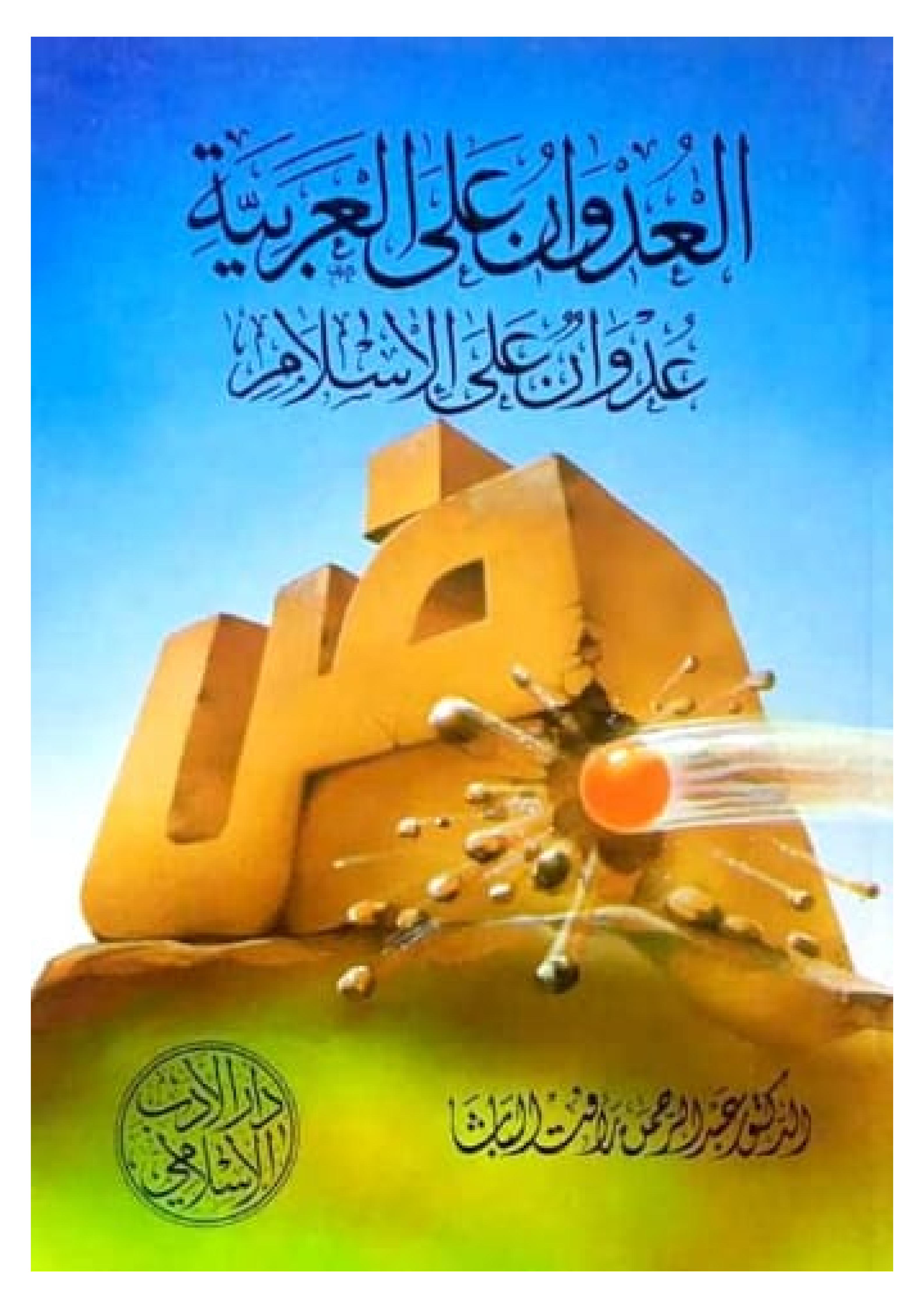

العدوان على العربية
عدوان على الإسلام
الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا
دار الأدب الإسلامي

العدوان على العربية

عدوان على الإسلام

الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م



إهداء

.. إلى حَمَلَةِ القُرْآنِ وَحُماةِ اللُّغَةِ.

.. إلى المُرابِطِينَ الَّذِينَ يُدْرِكُونَ أَنَّهُمْ مُرابِطُونَ.

.. إلى الَّذِينَ يَحْمِلُونَ شُعْلَةَ القُرْآنِ وَفُصْحاهُ، وَيَقِفُونَ بِها في مَهَبِّ الرِّيحِ في كُلِّ مَكانٍ.

.. إلى الَّذِينَ هُمْ قَلِيلٌ في نَهارِ أُمَّتِهِمُ الباسِمِ، كَثِيرٌ في لَيالِيها الحالِكَةِ.

.. إلى الَّذِينَ قَدْ عَقَدُوا العَزْمَ عَلَى أَنْ يُعِيدُوا إلى أُمَّتِهِمْ ثِقَتَها بِنَفْسِها، وَبِتُراثِها، وَبِدِينِها، وَبِلُغَتِها بَعْدَ أَنْ خامَرَها الشَّكُّ في كُلِّ ذلِكَ.

.. إلى كُلِّ هؤلاءِ أُهْدِي هذِهِ الكَلِمَةَ.

عبد الرحمن رأفت الباشا

قَالَ الثَّعَالِبِيُّ (١) :

« مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَحَبَّ رَسُولَهُ مُحَمَّداً ،

وَمَنْ أَحَبَّ الرَّسُولَ الْعَرَبِيَّ أَحَبَّ الْعَرَبَ ،

وَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ أَحَبَّ الْعَرَبِيَّةَ الَّتِي نَزَلَ بِهَا أَفْضَلُ الْكُتُبِ عَلَىٰ أَفْضَلِ الْعَجَمِ وَالْعَرَبِ ،

وَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَبِيَّةَ عُنِيَ بِهَا وَثَابَرَ عَلَيْهَا وَصَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَيْهَا ،

وَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ ،

وَشَرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِيمَانِ ...

اعْتَقَدَ أَنَّ مُحَمَّداً صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُ الرُّسُلِ ،

وَالْإِسْلَامَ خَيْرُ المِلَلِ ،

وَالْعَرَبَ خَيْرُ الأُمَمِ ،

وَالْعَرَبِيَّةَ خَيْرُ اللُّغَاتِ وَالْأَلْسِنَةِ ،

وَالْإِقْبَالَ عَلَىٰ تَفَهُّمِهَا مِنَ الدِّيَانَةِ إِذْ هِيَ أَدَاةُ الْعِلْمِ ، وَمِفْتَاحُ التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ » (٢) .

* * *

(١) هو عبد الملك بن محمد « أبو منصور » من أئمة اللغة والأدب من أهل « نيسابور » من أرض « خراسان » ، كان فراء يخيط جلود الثعالب فنسب إلىٰ صناعته ، واشتغل بالأدب والتاريخ ... وله كثير من المؤلفات ، تُوفي سنة ٤٢٩هـ .

(٢) من مقدمة كتابه « فقه اللغة » .

قِيمَةُ اللُّغَةِ فِي حِفْظِ كِيَانِ الأُمَـمِ

إِنَّ أَرْضَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ كَانَتْ مَنْبِتاً لِلْعَرَبِيَّةِ مُنْذُ الْقِدَمِ ، وَمَوْئِلاً[١] لِلْقُرْآنِ مُنْذُ هَلَّ الْقُرْآنُ بِنُورِهِ عَلَىٰ الأَرْضِ ، وَسَتَبْقَىٰ - بِإِذْنِ اللَّهِ - حِصْناً مَنِيعاً لِذَلِكَ الكِتَابِ وَلُغَتِهِ ؛ تَحْمِيهَا مِنْ عُدْوَانِ الْعَادِينَ ، وَتَصُونُهَا مِنْ كَيْدِ الكَائِدِينَ إِلَىٰ أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .

وَبَعْدُ ... فَمَا أَهَمِيَّةُ هَذِهِ اللُّغَةِ الَّتِي بَذَلَ لَهَا أَسْلَافُنَا مَا بَذَلُوا ، وَجَاهَدُوا مِنْ أَجْلِ حِفْظِهَا وَبَقَائِهَا مَا جَاهَدُوا ، فَضَرَبُوا إِلَيْهَا أَكْبَادَ الإِبِلِ لِيَتَنَاقَلُوهَا بِالرِّوَايَةِ ...

وَأَرَاقُوا عَلَىٰ عَتَبَاتِهَا نُورَ عُيُونِهِمْ لِيَحْفَظُوهَا بِالتَّدْوِينِ ... وَتَبَتَّلُوا لَهَا مَا تَبَتَّلُوا[٢] لِيَجْمَعُوهَا فِي الْمُعْجَمَاتِ الَّتِي تَحْفَظُ مُتُونَهَا ، وَيَحُوطُوهَا بِالْقَوَاعِدِ الَّتِي تَضْبِطُ نِظَامَهَا ، وَيُثَبِّتُوهَا فِي آلَافِ آلَافِ الكُتُبِ الَّتِي

---

(١) مَوْئِلاً : ملاذاً ومرجعاً .

(٢) تبتلوا : تفرغوا وأعطوا الشيء كل اهتمامهم .

تَضُمُّ شِعْرَهَا وَنَثْرَهَا ... ثُمَّ اسْتَقَلُّوا ذَلِكَ كُلَّهُ فِي جَنْبِ هَذِهِ اللُّغَةِ الْكَرِيمَةِ .

مَا قِيمَةُ هَذِهِ اللُّغَةِ الَّتِي نَفْسَحُ لَهَا الْيَوْمَ مَجَالاً رَحِيباً فِي مَدَارِسِنَا وَمَعَاهِدِنَا وَكُلِّيَّاتِنَا ، وَنُخَصِّصُ لَهَا وَقْتاً طَوِيلاً فِي خُطَطِنَا وَمَنَاهِجِنَا ، وَنُعْطِيهَا نَصِيباً كَبِيراً مِنْ جُهْدِ أَبْنَائِنَا وَبَنَاتِنَا ؟...

إِنَّهَا لُغَتُنَا الَّتِي حَفِظَتْ عَلَيْنَا شَخْصِيَّتَنَا عَبْرَ التَّارِيخِ ... وَرَبَطَتْ شُعُوبَ أُمَّتِنَا بِرِبَاطِهَا الْوَثِيقِ ...

وَقَرَّبَتْ بَيْنَ أَمْزِجَةِ مُوَاطِنِينَا وَمَشَاعِرِهِمْ ، وَوَاءَمَتْ بَيْنَ تَقَالِيدِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ .

وَهِيَ الْحِصْنُ الَّذِي لَاذَ بِهِ الْعَرَبُ طِوَالَ خَمْسَةَ عَشَرَ قَرْناً ، فَصَانَ كِيَانَهُمْ مِنْ أَنْ يَتَمَزَّقَ ، وَحَفِظَ شَمْلَهُمْ مِنْ أَنْ يَتَفَرَّقَ ... وَوَحَّدَ كَلِمَتَهُمْ عَلَىٰ دَفْعِ الْعُدْوَانِ كُلَّمَا تَعَرَّضُوا لِلْعُدْوَانِ .

وَهِيَ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهُ لُغَةُ قُرْآنِنَا الْعَظِيمِ ، وَوِعَاءُ دِينِنَا

الْقَوِيمِ ، وَمُسْتَوْدَعُ حَضَارَتِنَا الزَّاهِرَةِ ، وَخِزَانَةُ تُرَاثِنَا الرُّوحِيِّ وَالْعَقْلِيِّ .

* * *

وَلَيْسَتْ لُغَتُنَا أَيُّهَا السَّادَةُ بِدْعاً فِي حِفْظِ كِيَانِ الأُمَمِ ، وَجَمْعِ شَمْلِ الشُّعُوبِ ... وَإِنَّمَا هُوَ شَأْنُ اللُّغَاتِ جَمِيعاً . فَنَحْنُ إِذَا اسْتَعْرَضْنَا طَائِفَةَ الأُمَمِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي أُورُبَّا وَجَدْنَا أَثَرَ اللُّغَةِ فِي ظُهُورِهَا جَلِيًّا وَاضِحاً .

فَهَذِهِ « أَلْمَانْيَا » كَانَتْ إِلَىٰ الْقَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ مُقَاطَعَاتٍ مُتَفَرِّقَةً مُتَنَابِذَةً مُتَنَافِرَةً ، لِكُلِّ مُقَاطَعَةٍ أَمِيرٌ ، وَلِكُلِّ أَمِيرٍ نِظَامٌ ، وَلِكُلِّ نِظَامٍ حُكُومَةٌ ...

وَظَلَّ الأَمْرُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ شَعَرَ قَادَةُ الْفِكْرِ فِي « أَلْمَانْيَا » بِقُدْرَةِ اللُّغَةِ عَلَىٰ جَمْعِ الأَشْتَاتِ إِلَىٰ الأَشْتَاتِ ، وَتَوْحِيدِ الأَصْوَاتِ مَعَ الأَصْوَاتِ ...

فَهَبَّ « هَرْدِرْ »[1] فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ

---

(١) هِرْدِر Herder: « ١٧٤٤ - ١٨٠٣م » أديب ألماني له تأثير كبير على نشأة حركة « العاصفة والاندفاع » الأدبية .

الثَّامِنَ عَشْرَ يُنَادِي : بِأَنَّ اللُّغَةَ هِيَ الأَسَاسُ الَّذِي تُرْسَىٰ عَلَيْهِ دَعَائِمُ الْوَحْدَةِ ، وَالنَّوَاةُ الَّتِي تَتَجَمَّعُ حَوْلَهَا الشُّعُوبُ .

وَلَاقَتْ دَعْوَتُهُ هَذِهِ هَوًى مِنْ نُفُوسِ أُدَبَاءِ الْحَرَكَةِ الإِبْدَاعِيَّةِ فِي « أَلْمَانْيَا » ، فَعَكَفُوا عَلَىٰ تُرَاثِهِمُ الْقَدِيمِ أَيَّامَ كَانَتْ أُمَّتُهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ...

وَاتَّخَذُوا مِنْ مَآثِرِ أَسْلَافِهِمْ مَادَّةً خِصْبَةً لِأَدَبِهِمْ ، وَمِنْ بُطُولَاتِ قَادَتِهِمْ مَوْضُوعَاتٍ مُثِيرَةً لِشِعْرِهِمْ ...

وَنَسَجُوا حَوْلَ ذَلِكَ قِصَصاً رَائِعَةً هَوَتْ إِلَيْهَا أَفْئِدَةُ الشَّبَابِ ، وَقَصَائِدَ بَارِعَةً مَلَكَتْ أَلْبَابَ الْفِتْيَانِ وَالْفَتَيَاتِ ...

وَالْتَفَتُوا إِلَىٰ طَبِيعَةِ بِلَادِهِمْ فَتَغَنَّوْا بِجَمَالِهَا السَّاحِرِ ، وَأَبْرَزُوا فِتْنَتَهَا الأَخَّاذَةَ ، فَشَعَرَ الأَبْنَاءُ بِمَفَاخِرِ الآبَاءِ ، وَتَجَمَّعَتِ الْعَوَاطِفُ عَلَىٰ حُبِّ الْوَطَنِ الكَبِيرِ .

وَقَامَ فِي هَذِهِ الْمُقَاطَعَاتِ ، مُجْتَمَعٌ « أَلْمَانِيٌّ » مُوَحَّدُ الْمَشَاعِرِ وَالْغَايَاتِ ، مُتَطَلِّعٌ إِلَىٰ الِانْضِوَاءِ تَحْتَ

لِوَاءٍ وَاحِدٍ ، مِمَّا مَهَّدَ الطَّرِيقَ أَمَامَ « بِسْمَارْك »[1] لِتَعْبِئَةِ الشُّعُورِ الْقَوْمِيِّ ، وَدَفْعِ الأُمَّةِ « الأَلْمَانِيَّةِ » نَحْوَ الْوَحْدَةِ الْكُبْرَىٰ الَّتِي تَمَّتْ عَلَىٰ يَدَيْهِ .

* * *

عَلَىٰ أَنَّ هُنَاكَ مَثَلاً أَعْظَمَ مِنَ الْمَثَلِ السَّابِقِ فِي الْإِبَانَةِ عَنْ أَثَرِ اللُّغَةِ فِي إِحْيَاءِ الأُمَمِ ، وَحِفْظِهَا مِنَ التَّمَزُّقِ وَالضَّيَاعِ ...

ذَلِكُمُ الْمَثَلُ ، هُوَ « إِيرْلَنْدَا » الَّتِي رَزَحَتْ تَحْتَ وَطْأَةِ الاحْتِلَالِ « الإِنْكِلِيزِيِّ » مُنْذُ أَوَائِلِ الْقَرْنِ الثَّانِيَ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ ، وَذَاقَتْ مِنْ وَيْلَاتِهِ مَا لَمْ يَذُقْهُ مُسْتَعْمَرٌ مِنْ مُسْتَعْمِرٍ قَطُّ .

فَلَقَدْ أَعْمَلَ « كُرُومُوِيلُ »[2] السَّيْفَ فِي رِقَابِ

---

(١) بسمارك Bismarck: « ١٨١٥ - ١٨٩٨م » أصبح أول مستشار « أو رئيس وزارة » للإمبراطورية الألمانية .

(٢) أوليفر كروموِيل Oliver Cromowell: « ١٥٩٩ - ١٦٥٨م » زعيم سياسي وعسكري إنكليزي هزم الملكيين وأعلن الجمهورية سنة « ١٦٥٣م » .

« الإيرْلَنْدِيِّينَ » ، وَجَمَعَ عِشْرِينَ أَلْفاً مِنْ شَبَابِهِمْ وَبَاعَهُمْ عَبِيداً فِي « أَمْرِيكَا » ، وَنَفَىٰ أَرْبَعِينَ أَلْفاً مِنْ رِجَالِهِمْ خَارِجَ الْبِلَادِ ...

وَسَعَىٰ هُوَ وَمَنْ تَلَاهُ فِي الْحُكْمِ لِمَحْوِ شَخْصِيَّةِ « إِيرْلَنْدَا » بِالْقَضَاءِ عَلَىٰ لُغَتِهَا حَتَّىٰ تَمَّ لِلْإِنْكِلِيزِ مَا أَرَادُوا وَانْدَثَرَتِ اللُّغَةُ « الإِيرْلَنْدِيَّةُ » ، وَغَدَتْ شَيْئًا أَثَرِيًّا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا حِفْنَةٌ مِنَ الرِّجَالِ ، وَأُدْمِجَتْ « إِيرْلَنْدَا » فِي الْكِيَانِ « الْبِرِيطَانِيِّ » الْكَبِيرِ ، وَأَصْبَحَ لَهَا نُوَّابٌ يُمَثِّلُونَهَا فِي مَجْلِسِ الْعُمُومِ .

وَلَمَّا تَنَبَّهَ الشُّعُورُ الْوَطَنِيُّ لَدَىٰ بَعْضِ رِجَالِهَا ، وَحَاوَلُوا أَنْ يَبْعَثُوا أُمَّتَهُمْ مِنْ جَدِيدٍ ، وَأَنْ يُحَقِّقُوا لَهَا شَخْصِيَّتَهَا الْمُمَيَّزَةَ ، وَأَنْ يَفْصِلُوهَا عَنِ الشَّعْبِ « الْبِرِيطَانِيِّ » ، رَأَوْا أَنَّ مَنْطِقَ الْحَيَاةِ لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ ذَلِكَ ، مَا دَامَتْ لُغَتُهُمْ هِيَ اللُّغَةُ « الإِنْكِلِيزِيَّةُ » ...

وَمَا دَامَ شَعْبُهُمْ يَجْهَلُ لُغَتَهُ الَّتِي تُمَيِّزُ شَخْصِيَّتَهُ ، وَتُبْرِزُ كِيَانَهُ ، وَتُحَقِّقُ وَحْدَتَهُ ...

وَأَسْعَفَهُمُ الْقَدَرُ بِمُعَلِّمٍ يُتْقِنُ لُغَةَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ؛ دَفَعَهُ شُعُورُهُ بِوَاجِبِهِ إِلَىٰ وَضْعِ الْكُتُبِ السَّهْلَةِ الَّتِي تُيَسِّرُ لِمُوَاطِنِيهِ تَعَلُّمَ اللُّغَةِ ، فَهَبُّوا يُسَاعِدُونَهُ عَلَىٰ نَشْرِهَا ، وَيُؤَازِرُونَهُ فِي تَعْلِيمِهَا حَتَّىٰ اسْتَعَادَتْ مَكَانَهَا مِنْ أَلْسِنَةِ الْمُوَاطِنِينَ ، وَعَمَّتْ بَيْنَهُمْ وَشَاعَتْ ... وَكَانَتْ عَامِلاً قَوِيًّا فِي إِحْيَاءِ أُمَّتِهِمْ وَاسْتِقْلَالِ بِلَادِهِمْ ، وَاسْتَعَادَةِ كِيَانِهِمْ .

وَلَمَّا تَمَّ لِإِيرْلَنْدَا ذَلِكَ ، قَدَّرَ الْمُوَاطِنُونَ لِلْمُعَلِّمِ الْعَظِيمِ يَدَهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَكْبَرُوا أَثَرَهُ فِي تَحْرِيرِ بِلَادِهِمْ ، فَكَافَأُوهُ عَلَىٰ صَنِيعِهِ بِأَنِ انْتَخَبُوهُ لِيَكُونَ أَوَّلَ رَئِيسٍ لِجُمْهُورِيَّةِ « إِيرْلَنْدَا » الْحُرَّةِ ، ذَلِكَ الْمُعَلِّمُ هُوَ الرَّئِيسُ « دِيڤَالِيرَا » .

* * *

وَلُغَتُنَا الْعَرَبِيَّةُ أَيُّهَا السَّادَةُ لَيْسَتْ قَوْمِيَّةً فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا هِيَ لُغَةٌ دِينِيَّةٌ أَيْضاً .

فَهِيَ كَمَا تُجَمِّعُ الشُّعُوبَ الْعَرَبِيَّةَ حَوْلَهَا تُجَمِّعُ حَوْلَ الشُّعُوبِ الْعَرَبِيَّةِ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ ،

وَتَجْعَلُ مِنْهُمْ سَنَداً قَوِيًّا لَهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَظَهِيراً يَدْعَمُ قَضَايَاهَا فِي كُلِّ مَجَالٍ ...

وَعَرَفَ الْعَدُوُّ الْمُتَيَقِّظُ أَثَرَ هَذِهِ اللُّغَةِ فِي جَمْعِ الشَّمْلِ الشَّتِيتِ ، وَلَمِّ الشَّعَثِ الْمُتَفَرِّقِ ...

وَاسْتَيْقَنَ مِنْ قُدْرَتِهَا عَلَىٰ حِفْظِ كِيَانِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَدَفْعِهَا إِلَىٰ النُّهُوضِ عَلَىٰ قَدَمَيْهَا لِتَقِفَ فِي وَجْهِهِ وَوَجْهِ مَطَامِعِهِ .

فَشَنَّ هُجُومَهُ عَلَيْهَا فِي جَمِيعِ الْمَيَادِينِ .

وَالْعَدُوُّ الَّذِي يَمْلِكُ عُلَمَاءَ يُحَطِّمُونَ الذَّرَةَ ، وَيَرْتَادُونَ الْفَضَاءَ ، وَيُسَخِّرُونَ قُوَىٰ الْكَوْنِ ... يَمْلِكُ طَائِفَةً مِنْ عُلَمَاءِ الاسْتِعْمَارِ لَا يَقِلُّونَ فِي قُدُرَاتِهِمْ عَنْ عُلَمَاءِ الْكَوْنِ وَالذَّرَّةِ نَذَرُوا أَنْفُسَهُمْ لِرَسْمِ الْخُطَطِ الَّتِي يَسْتَذِلُّونَ بِهَا الشُّعُوبَ ، وَيَسْتَعْبِدُونَ بِوَاسِطَتِهَا الْأُمَمَ .

* * *

الْعُدْوَانُ عَلَىٰ لُغَةِ الْقُرْآنِ

لَقَدْ عَرَفَ أَعْدَاءُ الإِسْلَامِ - كَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ - أَثَرَ هَذِهِ اللُّغَةِ فِي بِنَاءِ حَيَاةِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَقِيمَتَهَا فِي حِفْظِ الإِسْلَامِ وَفَهْمِ الْقُرْآنِ ... فَجَنَّدُوا لِحَرْبِهَا طَائِفَةً كَبِيرَةً مِنْ دَهَاقِينِهِمْ ...

وَانْدَفَعَ وَرَاءَ هَؤُلَاءِ نَفَرٌ مِنْ أَبْنَاءِ أُمَّتِنَا عَنْ عِلْمٍ أَوْ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ يُؤَيِّدُونَهُمْ فِي دَعْوَتِهِمْ، وَيُظَاهِرُونَهُمْ[1] فِي حَرْبِهِمْ، وَيَدْعُونَ لِلأَخْذِ بِخُطَطِهِمْ وَمَشْرُوعَاتِهِمْ.

وَقَدْ رَأَىٰ هَؤُلَاءِ الأَعْدَاءُ أَنَّ السَّيْطَرَةَ عَلَىٰ الأَقْوَامِ لَا تَكُونُ بِالْحَدِيدِ وَالنَّارِ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا تَكُونُ بِالسَّيْطَرَةِ عَلَىٰ الْعُقُولِ ...

وَأَنَّ السَّبِيلَ إِلَىٰ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِإِضْعَافِ لُغَةِ الأُمَّةِ وَمَحْوِهَا حَتَّىٰ تَبْعُدَ الشُّقَّةُ بَيْنَ الشُّعُوبِ وَمَاضِيهَا، وَتَتَقَطَّعَ الأَسْبَابُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ تُرَاثِهَا ...

---

(١) يظاهرونهم: يعاونونهم، ويساعدونهم علىٰ إظهار أمرهم.

فَتَغْدُوَ كَإِنْسَانٍ فَقَدَ ذَاكِرَتَهُ وَأَصْبَحَ لَا يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةِ مَاضِيهِ مَا يُعِينُهُ عَلَىٰ دَعْمِ حَاضِرِهِ ، وَلَا يَجِدُ فِي تُرَاثِ أَمْسِهِ مَا يَسُدُّ بِهِ حَاجَةَ يَوْمِهِ ... وَبِذَلِكَ يَسْتَكِينُ لِسُلْطَانِهَا ، وَيَخْضَعُ لِطُغْيَانِهَا بَعْدَ أَنْ بَاتَ شَعْباً لَا مَاضِيَ لَهُ .

وَابْتَدَأَتْ هَذِهِ الْحَرْبُ بِأَنْ فَرَضَ « الْفَرَنْسِيُّونَ » عَلَىٰ أَبْنَاءِ « الْجَزَائِرِ » الْمُسْلِمَةِ لُغَتَهُمُ الْفَرَنْسِيَّةَ ، وَحَرَّمُوا تَدْرِيسَ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْمَدَارِسِ وَالْمَعَاهِدِ ...

وَحَارَبُوا الْقُرْآنَ عَلَىٰ أَنَّهُ كِتَابُ الْعَرَبِيَّةِ الْأَكْبَرُ ، وَحَارِسُهَا الْأَمِينُ وَرُكْنُهَا الرَّكِينُ ، حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ لِهَذِهِ اللُّغَةِ وَقُرْآنِهَا مِنْ مَلْجَأٍ إِلَّا الْكَتَاتِيبُ وَبَعْضُ الْمَدَارِسِ الدِّينِيَّةِ الْفَقِيرَةِ ... وَلَوْلَا أَنْ تَدَارَكَتْهَا « جَمْعِيَّةُ الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِالْجَزَائِرِ » ، وَعَلَىٰ رَأْسِهَا الْعَالِمُ الْمُجَاهِدُ الْمُصْلِحُ الشَّيْخُ « عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنِ بَادِيسْ »[1]، وَهَبَّتْ تُنْشِئُ الْمَكَاتِبَ

---

(١) عبد الحميد بن محمد بن باديس : رئيس جمعية العلماء من بداية قيامها سنة ١٩٣١م إلىٰ وفاته ، وُلِد في « قسنطينة » وأتم دراسته في جامعة الزيتونة بتونس ، أصدر مجلة « الشهاب » وله « تفسير القرآن الكريم » تُوفي سنة ١٩٤٠م .

لِتَحْفِيظِ الْقُرْآنِ ، وَالْمَدَارِسَ لِتَعْلِيمِ الدِّينِ وَاللُّغَةِ ، لَأَصَابَ مِنْهَا الْعَدُوُّ مَقْتَلاً .

* * *

وَفَرَضَ « الْإِنْكِلِيزُ » لُغَتَهُمْ عَلَىٰ « مِصْرَ » أَيْضاً ، وَجَعَلُوهَا لُغَةَ التَّعْلِيمِ مُنْذُ السَّنَةِ الْأُولَىٰ فِي الْمَرْحَلَةِ الْابْتِدَائِيَّةِ إِلَىٰ نِهَايَةِ التَّعْلِيمِ الْعَالِي ؛ تُدَرَّسُ بِهَا الْمَوَادُّ كُلُّهَا ، وَتُؤَدَّىٰ بِهَا الْامْتِحَانَاتُ جَمِيعُهَا ، وَقَدْ أَدَّىٰ ذَٰلِكَ إِلَىٰ اسْتِقْدَامِهِمْ مُعَلِّمِينَ « إِنْكِلِيز » يَعْمَلُونَ عَلَىٰ صَهْرِ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَوْتَقَةِ الَّتِي أَعَدُّوهَا لَهُمْ ، وَيَفْتِنُونَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَضَارَتِهِمْ وَمُثُلِهِمْ ، وَيُرَغِّبُونَهُمْ بِحَضَارَةِ « إِنْكِلْتِرَا » وَتُرَاثِهَا ، وَيُزَيِّنُونَ لَهُمْ أَبْطَالَهَا وَمَفَاخِرَهَا .

وَقَدْ بَلَغَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي « مِصْرَ » حِينَ ذَاكَ مَبْلَغاً مِنَ الْهَوَانِ وَالضَّعْفِ جَعَلَ وَزِيرَ الْمَعَارِفِ آنْذَاكَ يَقِفُ فِي وَجْهِ النُّوَّابِ الَّذِينَ طَالَبُوا بِإِحْلَالِ الْعَرَبِيَّةِ مَحَلَّ « الْإِنْكِلِيزِيَّةِ » فِي الْمَرْحَلَةِ الْابْتِدَائِيَّةِ وَيَصِمُهُمْ بِالتَّهَوُّرِ ، وَيَصِفُهُمْ بِالْانْسِيَاقِ مَعَ الْعَوَاطِفِ ، وَيُبَيِّنُ لَهُمُ اسْتِحَالَةَ

الْأَخْذِ بِمُقْتَرَحِهِمْ لِعَجْزِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنِ الْوَفَاءِ بِالتَّعْلِيمِ ، وَقِلَّةِ الْمُعَلِّمِينَ الَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ تَدْرِيسَ الْمَوَادِّ الْمُخْتَلِفَةِ بِالْعَرَبِيَّةِ .

وَلَكِنَّ الْوَزِيرَ أَخْفَقَ فِي إِقْنَاعِ النُّوَّابِ بِوِجْهَةِ نَظَرِهِ ، وَأَقَرَّتِ الْجَمْعِيَّةُ التَّشْرِيعِيَّةُ ، وُجُوبَ تَعْلِيمِ الْمَوَادِّ الْمُخْتَلِفَةِ فِي الْمَرْحَلَةِ الابْتِدَائِيَّةِ بِالْعَرَبِيَّةِ بَدَلاً مِنَ « الإِنْكِلِيزِيَّةِ » ، الَّتِي ظَلَّتْ تُعَلَّمُ بِهَا أَكْثَرَ مِنْ رُبْعِ قَرْنٍ .

* * *

وَقَدْ عَمِلَ الْإِنْكِلِيزُ فِي « السُّودَانِ » ، عَلَىٰ إِبْعَادِ الْعَرَبِيَّةِ عَنْ مَيَادِينِ التَّعْلِيمِ ، وَعَزْلِهَا عَنْ أَلْسِنَةِ الطَّبَقَةِ الْمُثَقَّفَةِ وَالْمُعَدَّةِ لِتَوَلِّي الْقِيَادَةِ فِي مُخْتَلِفِ الْمَيَادِينِ .

فَأَنْشَأُوا كُلِيَّةَ « غُورْدُنْ » الْإِنْكِلِيزِيَّةَ ، وَحَصَرُوا التَّعْلِيمَ الْعَالِيَ فِيهَا أَوْ كَادُوا ، لِيَحْمِلُوا الْمُوَاطِنِينَ عَلَىٰ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ « الْإِنْكِلِيزِيَّةِ » فِي الْمَرْحَلَتَيْنِ الابْتِدَائِيَّةِ وَالثَّانَوِيَّةِ ، إِذَا أَرَادُوا مُتَابَعَةَ تَعْلِيمِهِمُ الْجَامِعِيِّ ...

وَلَوْلَا الْمَعْهَدُ الدِّينِيُّ فِي « أُمِّ دُرْمَانَ » ...

وَلَوْلَا الْمَعَاهِدُ الْمِصْرِيَّةُ الَّتِي فَتَحَتْ صَدْرَهَا رَحِيباً لِلْإِخْوَةِ الْأَشِقَّاءِ لَكَانَ لِلسُّودَانِ الْيَوْمَ شَأْنٌ آخَرُ، يُفْرِحُ الْعَدُوَّ، وَيُتْرِحُ الصَّدِيقَ.

وَلَوْ أَنَّ «فَرَنْسَا» اسْتَقَرَّتْ فِي «سُورِيَّةَ» وَلَمْ تَنْشَغِلْ مَعَهَا بِتِلْكَ الثَّوْرَاتِ الَّتِي أَقَضَّتْ مَضَاجِعَهَا، لَكَانَ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَوْقِفٌ غَيْرُ الَّذِي كَانَ.

وَلَعَلَّ مِمَّا يُلْقِي الْأَضْوَاءَ عَلَىٰ هَذَا الْمُخَطَّطِ الْعُدْوَانِيِّ، أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ كَانُوا يُحَارِبُونَ الْعَرَبِيَّةَ بِكُلِّ سِلَاحٍ، وَيُكِيلُونَ لَهَا التُّهَمَ جُزَافاً، كَانُوا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يُشَجِّعُونَ تَعْلِيمَ اللُّغَةِ «الْكُرْدِيَّةِ» فِي مَدَارِسِ «الْعِرَاقِ»...

وَيُحْيُونَ اللُّغَةَ «الْبَرْبَرِيَّةَ» فِي أَرْضِ «الْجَزَائِرِ»، وَيَنْشَطُ عُلَمَاؤُهُمْ فِي وَضْعِ قَوَاعِدَ لَهَا، وَتَأْلِيفِ كُتُبٍ فِيهَا، وَتَيْسِيرِ تَعْلِيمِهَا لِلنَّاسِ.

* * *

وَلَيْسَتْ هَذِهِ أَيُّهَا السَّادَةُ هِيَ كُلُّ الْحَرْبِ الَّتِي شَنَّهَا

الْأَعْدَاءُ عَلَىٰ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَقُرْآنِهَا ... وَإِنَّمَا هِيَ بَعْضُ هَذِهِ الْحَرْبِ .

وَلَيْسَ هَذَا هُوَ أَكْبَرُ مِعْوَلٍ اسْتُعْمِلَ فِي هَدْمِ صَرْحِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ... وَإِنَّمَا هُوَ أَصْغَرُهَا شَأْناً وَأَقَلُّهَا خَطَراً .

فَلَقَدْ قَادَ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءُ ضِدَّ هَذِهِ اللُّغَةِ حَمْلَةً ، سِلَاحُهَا الْبَاطِلُ ، وَعُدَّتُهَا الِافْتِرَاءُ ، وَذَخِيرَتُهَا التَّشْكِيكُ .

وَكَانَتِ الْفِرْيَةُ الَّتِي افْتَرَاهَا شَيَاطِينُهُمْ عَلَىٰ هَذِهِ اللُّغَةِ أَنَّهَا عَقِيمٌ لَا تَلِدُ ، عَجُوزٌ لَا تَقْوَىٰ ، بَلِيدَةٌ لَا تَتَطَوَّرُ ، صَعْبَةٌ لَا تَرْقَىٰ إِلَيْهَا الْأَفْهَامُ وَلَا تُدْرِكُهَا الْأَوْهَامُ[1] .

وَظَلُّوا يَرْفَعُونَ هَذِهِ الشِّعَارَاتِ وَيُنَادُونَ بِهَا ، حَتَّىٰ غَدَتْ فِي نَظَرِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُوَاطِنِينَ الْعَرَبِ حَقَائِقَ لَا يَرْقَىٰ إِلَيْهَا الشَّكُّ ، وَمُشْكِلَاتٍ تَحْتَاجُ إِلَىٰ حُلُولٍ عَاجِلَةٍ .

* * *

(١) الأوهام : ما يقع في الذهن من خواطر وأفكار .

أ ـ إِحْلَالُ الْعَامِّيَّةِ مَحَلَّ الْفُصْحَىٰ

نَشِطَتِ الْأَيْدِي الآثِمَةُ ، تَعْمَلُ عَلَىٰ هَدْمِ هَذِهِ اللُّغَةِ تَارَّةً فِي السِّرِّ ، وَأُخْرَىٰ فِي الْعَلَنِ .

وَهَبَّتِ النِّيَّاتُ الْمَشْبُوهَةُ تَكِيدُ لَهَا تَحْتَ سِتَارِ التَّجْدِيدِ وَالْإِصْلَاحِ ...

وَكَانَتْ أُولَىٰ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ نَبْذِ الْفُصْحَىٰ ، وَإِحْلَالِ الْعَامِّيَّةِ مَحَلَّهَا ، وَجَعْلِهَا لُغَةَ الْكِتَابِ كَمَا هِيَ لُغَةُ الْخِطَابِ .

وَبَدَأَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ سَنَةَ وَاحِدَةٍ وَثَمَانِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ وَأَلْفٍ حِينَ حَضَّتْ مَجَلَّةُ « الْمُقْتَطَفْ »(١) عَلَىٰ جَعْلِ لُغَةِ الْخِطَابِ لُغَةً لِلْكِتَابِ ، وَدَعَتْ رِجَالَ الْأَدَبِ وَالْفِكْرِ إِلَىٰ بَحْثِ ذَلِكَ الاقْتِرَاحِ وَمُنَاقَشَتِهِ .

---

(١) مجلة المقتطف : إحدىٰ المجلات العربية ، أسسها في بيروت يعقوب صروف وَفارس نمر سنة ١٨٧٦م ، ثم نقلاها إِلَىٰ القاهرة ، توقفت عن الصدور سنة ١٩٥٢م .

ثُمَّ أُثِيرَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مَرَّةً أُخْرَىٰ فِي مَطْلَعِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِمِائَةٍ وَأَلْفٍ حِينَ أَلَّفَ « وَيْلْمُورُ » - أَحَدُ الْقُضَاةِ الْإِنْكِلِيزِ فِي الْمَحَاكِمِ الْمُخْتَلِطَةِ فِي « مِصْرَ » - كِتَاباً دَعَاهُ « لُغَةُ الْقَاهِرَةِ » حَضَّ فِيهِ عَلَىٰ إِحْلَالِ الْعَامِّيَّةِ مَحَلَّ الْفُصْحَىٰ ، وَنَادَىٰ بِجَعْلِهَا لُغَةَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَوَضَعَ لَهَا قَوَاعِدَ وَضَوَابِطَ ...

فَاسْتَقْبَلَتِ « الْمُقْتَطَفُ » الْكِتَابَ بِالثَّنَاءِ وَالتَّقْرِيظِ ، وَقَدَّمَتْهُ إِلَىٰ جَمَاهِيرِ الْقُرَّاءِ ، وَأَشَادَتْ بِهِ وَبِمَا دَعَا إِلَيْهِ .

وَتَلَا هَذَا الْقَاضِيَ الْإِنْكِلِيزِيَّ إِنْكِلِيزِيٌّ آخَرُ هُوَ السَّيِّدُ « وِلْيَمْ وِلْكُوكْس » - أَحَدُ مُهَنْدِسِي الرَّيِّ فِي « مِصْرَ » - فَدَعَا إِلَىٰ هَجْرِ الْفُصْحَىٰ وَإِحْلَالِ الْعَامِّيَّةِ مَحَلَّهَا ، وَوَضَعَ دَعْوَتَهُ هَذِهِ مَوْضِعَ التَّنْفِيذِ ؛ فَتَرْجَمَ شَطْراً كَبِيراً مِنَ الْإِنْجِيلِ إِلَىٰ اللَّهْجَةِ الْعَامِّيَّةِ ... كَمَا تَرْجَمَ إِلَيْهَا فُصُولاً مِنْ مَسْرَحِيَّاتِ « شِكْسِبِيرَ » .

ثُمَّ تَلَا هَذَيْنِ الْإِنْكِلِيزِيَّيْنِ مُوَاطِنٌ عَرَبِيٌّ ، هُوَ :

« سَلَامَةُ مُوسَىٰ » فَنَادَىٰ بِمَا نَادَيَا بِهِ ، ثُمَّ ازْدَادَ الدُّعَاةُ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ .

* * *

وَلَا أَظُنُّنِي بِحَاجَةٍ لِأَنْ أُنَوِّهَ بِمَقَاصِدِ « وِلْمُورَ ، وَوِلْيَمْ » فَهِيَ غَيْرُ خَافِيَةٍ عَلَىٰ أَحَدٍ ...

وَلَكِنَّنِي أُرِيدُ أَنْ أُقَدِّمَ « سَلَامَةَ مُوسَىٰ » إِلَىٰ قُرَّائِنَا الْكِرَامِ ؛ فَقَدْ يَكُونُ فِي مَعْرِفَتِهِ مَا يُلْقِي ضَوْءًا عَلَىٰ الْمَقَاصِدِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي تَكْمُنُ وَرَاءَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ ، فَسَلَامَةُ مُوسَىٰ يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ « الْيَوْمُ وَالْغَدُ » :

« كُلَّمَا ازْدَدْتُ خِبْرَةً وَتَجْرِبَةً وَثَقَافَةً تَوَضَّحَتْ أَمَامِي أَغْرَاضِي فِي الْأَدَبِ ، فَهِيَ تَتَلَخَّصُ فِي أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَخْرُجَ مِنْ « آسْيَا » ، وَأَنْ نَلْتَحِقَ بِأُورُبَّا ...

فَإِنِّي كُلَّمَا زَادَتْ مَعْرِفَتِي بِالشَّرْقِ ، زَادَتْ كَرَاهِيَتِي لَهُ ، وَشُعُورِي بِأَنَّهُ غَرِيبٌ عَنِّي ...

وَكُلَّمَا زَادَتْ مَعْرِفَتِي بِأُورُبَّا زَادَ حُبِّي لَهَا وَتَعَلُّقِي بِهَا ، وَزَادَ شُعُورِي بِأَنَّهَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهَا ...

هَذَا هُوَ مَذْهَبِي الَّذِي أَعْمَلُ لَهُ طَوَالَ حَيَاتِي سِرًّا وَجَهْراً ، فَأَنَا كَافِرٌ بِالشَّرْقِ مُؤْمِنٌ بِالْغَرْبِ » .

* * *

وَكَانَتْ حُجَجُ الدُّعَاةِ إِلَىٰ الْأَخْذِ بِالْعَامِّيَّةِ وَإِحْلَالِهَا مَحَلَّ الْفُصْحَىٰ تَدُورُ حَوْلَ الْأُمُورِ التَّالِيَةِ :

أَوَّلاً : ذَلِكَ التَّبَايُنُ[1] الْكَبِيرُ بَيْنَ لُغَةِ الْكِتَابِ وَلُغَةِ الْخِطَابِ ، مِمَّا يَجْعَلُ الْعِلْمَ وَقْفاً عَلَىٰ طَائِفَةٍ مَحْدُودَةٍ مِنَ النَّاسِ .

ثَانِياً : قُصُورُ الْفُصْحَىٰ عَنِ الْوَفَاءِ بِحَاجَاتِ الْحَضَارَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ النَّامِيَةِ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ .

ثَالِثاً : صُعُوبَةُ الْفُصْحَىٰ ، وَتَعَذُّرُ إِتْقَانِهَا عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنَ الْجُهُودِ السَّخِيَّةِ الَّتِي تُبْذَلُ فِي هَذَا السَّبِيلِ .

رَابِعاً : جُمُودُ الْفُصْحَىٰ ، وَعَدَمُ اسْتِعْدَادِهَا لِلتَّطَوُّرِ .

فَلْنُنَاقِشْ هَذِهِ الْحُجَجَ وَاحِدَةً وَاحِدَةً لِلْكَشْفِ عَنْ

---

(١) التباين : التغاير والاختلاف .

زَيْفِهَا ، وَدَحْضِ مَا ادَّعَاهُ الْمُدَّعُونَ مِنْ قُدْرَةِ الْعَامِّيَّةِ عَلَىٰ حَلِّ مُشْكِلَاتِنَا اللُّغَوِيَّةِ [١] ...

وَلْنَبْدَأْ بِمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ جَعْلَ الْعَامِّيَّةِ لُغَةً لِلْكِتَابِ يُصَيِّرُ الْعِلْمَ مُشَاعاً بَيْنَ الْمُوَاطِنِينَ الْعَرَبِ ، وَيَقْضِي عَلَىٰ طَبَقِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ ...

وَلْنُسَائِلْهُمْ عَنِ الْعَامِّيَّةِ الَّتِي يُرِيدُونَنَا أَنْ نَأْخُذَ بِهَا ، أَفَنَأْخُذُ عَامِّيَّةَ « الْعِرَاقِ » الَّتِي لَا يَفْهَمُهَا إِلَّا « الْعِرَاقِيُّونَ » وَحْدَهُمْ ...

أَمْ نَسْتَعْمِلُ عَامِّيَّةَ « الْجَزَائِرِ » الَّتِي تُسْتَغْلَقُ [٢] عَلَىٰ أَبْنَاءِ الْعُرُوبَةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ...

أَمْ نُؤْثِرُ [٣] عَامِّيَّةَ « الْيَمَنِ » أَوْ « مِصْرَ » أَوِ « الشَّامَ » أَوِ « السُّودَانَ » ؟!.

وَهَبْ أَنَّنَا أَخَذْنَا عَامِّيَّةَ « مِصْرَ » مَثَلاً أَفَنَخْتَارُ عَامِّيَّةَ

---

(١) سنبسط القول في ثالثاً ورابعاً عند الكلام على تفرد لغتنا وتميزها .

(٢) تستغلق : يعسر فهمها .

(٣) نؤثر : نختار ونفضل .

« الْقَاهِرَةِ » أَمْ عَامِّيَّةَ « الصَّعِيدِ » ؟ ... وَبَيْنَهُمَا مِنَ الْفَرْقِ مَا هُوَ أَشَدُّ بُعْداً مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْفُصْحَىٰ وَالْعَامِّيَّةِ ...

وَإِذَا كَانَتِ الْفُصْحَىٰ تَعْزِلُ بَعْضَ أَبْنَاءِ الأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنْ لُغَةِ الكِتَابِ ، فَإِنَّ الأَخْذَ بِأَيَّةِ عَامِّيَّةٍ مِنْ هَذِهِ الْعَامِّيَّاتِ يَعْزِلُ الْعَرَبَ وَالْمُسْلِمِينَ جَمِيعَهُمْ عَنِ الْعَامِّيَّةِ الْمُصْطَنَعَةِ ، وَيَحْرِمُهُمْ مِنَ الانْتِفَاعِ بِثَمَرَاتِ قَرَائِحِ[1] مُوَاطِنِيهِمْ فِي عَالَمِهِمُ الإِسْلَامِيِّ الْكَبِيرِ ...

وَإِذَا كَانَ الْغَرَضُ مِنَ الأَخْذِ بِالْعَامِّيَّةِ هُوَ تَنْشِيطُ الْعِلْمِ وَتَيْسِيرُهُ لِلنَّاسِ ... فَهَلْ يَتَّفِقُ ذَلِكَ مَعَ مَا تُؤَدِّي إِلَيْهِ الدَّعْوَةُ مِنْ وَأْدِ[2] آلَافِ الْكُتُبِ الَّتِي دُوِّنَتْ بِالْفُصْحَىٰ خِلَالَ تَارِيخِنَا الْحَضَارِيِّ التَّلِيدِ[3]، وَقَتْلِهَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ جَنَتْ ... وَقَطْعِ صِلَةِ الأَبْنَاءِ بِالآبَاءِ ، وَحِرْمَانِ الأَوَاخِرِ مِنَ الْبِنَاءِ عَلَىٰ أَسَاسِ الأَوَائِلِ ...

---

(١) القرائح : جمع مفرده قريحة ، وَهي ملكة الإبداع في الكلام وَإبداء الرأي .

(٢) الوأد : هو القتل بدفن الحي تحت التراب .

(٣) التليد : القديم العريق .

وَالدُّنْيَا كُلُّهَا تُؤْمِنُ أَنَّ الْعِلْمَ تُرَاثُ الإِنْسَانِيَّةِ الْخَالِدُ يُتِمُّ فِيهِ اللَّاحِقُ مَا بَدَأَهُ السَّابِقُ .

* * *

ثُمَّ مِنْ أَيْنَ لِهَؤُلَاءِ هَذِهِ الدَّعْوَىٰ بِقُصُورِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنِ الْوَفَاءِ بِمَطَالِبِ الْحَيَاةِ ، وَعَجْزِهَا عَنِ النُّهُوضِ بِأَعْبَاءِ الْحَضَارَةِ ، وَتَفَوُّقِ الْعَامِّيَّةِ عَلَيْهَا فِي ذَلِكَ ؟!! ...

مِنْ أَيْنَ لَهُمْ ذَلِكَ ؟!! ... وَهِيَ اللُّغَةُ الَّتِي امْتَدَّتْ طَاقَاتُهَا حَتَّىٰ وَسِعَتْ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظاً وَغَايَةً ...

وَغَزُرَتْ[١] مُفْرَدَاتُهَا حَتَّىٰ عَبَّرَتْ عَنْ أَدَقِّ دَقَائِقِ الْحَيَاةِ ...

وَرَحُبَتْ[٢] أَسَالِيبُهَا حَتَّىٰ أَفْصَحَتْ عَنْ أَنْبَلِ الْمَشَاعِرِ ، وَأَسْمَىٰ الْخِلَالِ .

ثُمَّ لَمَّا أَفَاءَ[٣] اللَّهُ عَلَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِنِعْمَةِ الإِسْلَامِ ، وَحَمَلَهَا عَلَىٰ جَنَاحَيِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَىٰ مَشَارِقِ الْأَرْضِ

---

(١) غزرت : كثرت وفاضت .
(٢) رحبت : اتسعت .
(٣) أفاء الله : مَنَّ الله بنعمه .

وَمَغَارِبِهَا اسْتَطَاعَتِ الْعَرَبِيَّةُ أَنْ تَنْشُرَ ظِلَّهَا الْوَارِفَ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ شُعُوبِ الْأَرْضِ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ أَنْ تَفْتِنَهُمْ عَنْ لُغَاتِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ ...

فَلَمْ يَمْضِ قَرْنَانِ مِنَ الزَّمَانِ حَتَّىٰ أَصْبَحَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ لُغَةَ سُكَّانِ الرُّقْعَةِ الْفَسِيحَةِ الْمُمْتَدَّةِ بَيْنَ المحِيطِ وَالْخَلِيجِ، وَذَلِكَ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ بِلَادِ «الْأَنْدَلُسِ» ...

وَحَتَّىٰ هَبَّ أَبْنَاءُ هَذِهِ الْأَقْوَامِ الْمُسْلِمَةِ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ يُؤَلِّفُونَ الْكُتُبَ وَيَضَعُونَ الْقَوَاعِدَ لِحِمَايَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ لُغَاتِهِمْ، وَلِصِيَانَةِ فُصْحَاهَا مِنْ عُجْمَةِ أَلْسِنَتِهِمْ.

وَمَا إِنْ أَطَلَّ الْعَصْرُ الذَّهَبِيُّ لِبَنِي «الْعَبَّاسِ» عَلَىٰ الْكَوْنِ وَعَمَدَ الْخُلَفَاءُ الْعِظَامُ مِنْ بَنِي «الْعَبَّاسِ» إِلَىٰ تَرْجَمَةِ الْعُلُومِ الْأَجْنَبِيَّةِ إِلَىٰ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ حَتَّىٰ اسْتَجَابَتْ لَهُمْ لُغَةُ الْقُرْآنِ أَعْظَمَ الِاسْتِجَابَةِ ...

فَاتَّسَعَتْ لِفَلْسَفَةِ «الْيُونَانِ»، وَحِكْمَةِ «الْهُنُودِ»، وَأَدَبِ «الْفُرْسِ» ...

• وَوَعَتْ أَعْظَمَ مَا حَفِلَ بِهِ التُّرَاثُ الإِنْسَانِيُّ مِنْ طِبٍّ ، وَكِيمِيَاءٍ وَمَا إِلَيْهِمَا مِنَ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالْمَعَارِفِ .

وَبَعْدُ ، فَتِلْكَ خُلَاصَةٌ مُوجَزَةٌ لِلْكَشْفِ عَنْ زَيْفِ حُجَجِ الدُّعَاةِ إِلَىٰ الأَخْذِ بِالْعَامِّيَّةِ وَإِحْلَالِهَا مَحَلَّ الْفُصْحَىٰ ، أَمَّا الْحُجَجُ بِصُعُوبَةِ الْفُصْحَىٰ وَجُمُودِهَا فَسَنَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا فِيمَا بَعْدُ كَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ .

* * *

ب ـ إِحْلَالُ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ

ثُمَّ تَلَتِ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ اصْطِنَاعِ الْعَامِّيَّةِ دَعْوَةٌ أُخْرَىٰ لَا تَقِلُّ عَنْهَا خَطَراً أَلَا وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ نَبْذِ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ وَإِحْلَالِ الْحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ مَحَلَّهَا ... وَقَدْ ظَهَرَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ فِي مَطْلَعِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، وَكَانَ مِنْ أَوَائِلِ الْمُبَشِّرِينَ بِهَا ، الْقَاضِي الإِنْكِلِيزِيُّ « وِيلْمُورُ » نَفْسُهُ .

ثُمَّ تَلَاهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ ذَلِكَ مُوَاطِنٌ عَرَبِيٌّ هُوَ : الأُسْتَاذُ « عَبْدُ الْعَزِيزِ فَهْمِي » ؛ فَحَبَّرَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ كَثِيراً مِنَ الْمَقَالَاتِ وَالرَّسَائِلِ ، وَتَقَدَّمَ إِلَىٰ مَجْمَعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَشْرُوعٍ كَامِلٍ لِإِحْلَالِ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ .

ثُمَّ تَلَا « عَبْدَ الْعَزِيزِ فَهْمِي » طَائِفَةٌ مِنَ الدُّعَاةِ كَانَ آخِرَهُمْ « سَعِيدُ عَقْل » حَيْثُ وَضَعَ هَذِهِ الدَّعْوَةَ مَوْضِعَ التَّنْفِيذِ ؛ فَأَصْدَرَ كِتَابَهُ « يَارَا » وَهُوَ دِيوَانُ شِعْرٍ نَظَمَهُ

بِالْعَامِّيَّةِ ، وَطَبَعَهُ بِالْحَرْفِ اللاَّتِينِيِّ فِي مَطْبَعَةِ « أَنْطُوَانَ » فِي « بَيْرُوتَ » .

وَكَانَتْ حُجَّةُ الدَّاعِينَ إِلَىٰ الْأَخْذِ بِهَٰذِهِ الْبِدْعَةِ هِيَ أَنَّ رَسْمَ الْكَلِمَاتِ بِالْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ لَا تَتَيَسَّرُ مَعَهُ قِرَاءَةُ النُّصُوصِ قِرَاءَةً مُسْتَرْسِلَةً مَضْبُوطَةً ...

وَأَنَّ الشَّكْلَ الَّذِي اسْتَعَاضَتْ بِهِ الْعَرَبِيَّةُ عَنْ حُرُوفِ الْحَرَكَاتِ ، قَدْ أَثْبَتَ الِاسْتِعْمَالُ عَدَمَ غَنَائِهِ ، لِأَنَّ الشَّكْلَةَ الْمُنْفَصِلَةَ عَنِ الْحَرْفِ كَثِيراً مَا تَقَعُ عَلَىٰ حَرْفٍ قَبْلَهُ ، أَوْ حَرْفٍ بَعْدَهُ لِعَدَمِ ضَبْطِ يَدِ الْكَاتِبِ ، أَوِ النَّاسِخِ ، أَوِ الطَّابِعِ ...

وَأَنَّ الْكَاتِبَ الْعَرَبِيَّ إِذَا اسْتَغْنَىٰ عَنِ الشَّكْلِ عَرَّضَ الْقَارِئَ لِقِرَاءَةِ الْكَلِمَةِ عَلَىٰ جَمِيعِ الْحَرَكَاتِ الَّتِي تَحْتَمِلُهَا الْحُرُوفُ ...

وَمِنْ هُنَا وَجَبَ - فِي نَظَرِهِمْ - عَلَىٰ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ يَأْخُذُوا بِطَرِيقَةٍ تُيَسِّرُ لَهُمْ كِتَابَةَ لُغَتِهِمْ عَلَىٰ وَجْهٍ لَا تَحْتَمِلُ فِيهِ الْكَلِمَةُ إِلَّا صُورَةً وَاحِدَةً مِنْ صُوَرِ الْأَدَاءِ ، وَوَجَدُوا أَنَّهُ

لَا يَتِمُّ لَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا اسْتَبْدَلُوا بِحُرُوفِهِمُ الْعَرَبِيَّةِ الْحُرُوفَ اللَّاتِينِيَّةَ .

* * *

وَدُعَاةُ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ يَنْسُونَ أَوْ يَتَنَاسَوْنَ مَا يَحُفُّ بِدَعْوَتِهِمْ هَذِهِ مِنْ مَخَاطِرَ ، وَمَا يَحُولُ دُونَ تَحْقِيقِهَا مِنْ عَقَبَاتٍ ... وَيَغْفُلُونَ أَوْ يَتَغَافَلُونَ عَنْ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الْمُخَطَّطِ الرَّهِيبِ الَّذِي يَهْدِفُ إِلَىٰ مُحَارَبَةِ لُغَةِ الْقُرْآنِ ، وَتَفْرِيقِ الْمُجْتَمِعِينَ عَلَيْهَا ، وَقَطْعِهِمْ عَنْ تُرَاثِهِمُ الْعَرِيقِ .

وَنَحْنُ حِينَ نَنْظُرُ إِلَىٰ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ نَظْرَةً مَوْضُوعِيَّةً يَسْتَبِينُ لَنَا فَسَادُهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ ... فَفِي الْعَرَبِيَّةِ تِسْعَةُ أَصْوَاتٍ مُمَثَّلَةٍ فِي تِسْعَةِ حُرُوفٍ لَا نَظِيرَ لَهَا فِي الْحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ وَهِيَ : الهَاءُ ، وَالحَاءُ ، وَالخَاءُ ، وَالصَّادُ ، وَالضَّادُ ، وَالطَّاءُ ، وَالظَّاءُ ، وَالعَيْنُ ، وَالْغَيْنُ .

وَقَدْ وَقَفَ أَصْحَابُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ حَيَارَىٰ أَمَامَ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ ، وَافْتَرَقَتْ كَلِمَتُهُمْ فِي إِيجَادِ الحُلُولِ لَهَا .

فَرَأَىٰ « عَبْدُ الْعَزِيزِ فَهْمِي » أَنَّهُ لَا مَفَرَّ لَهُ مِنْ أَخْذِ هَذِهِ

الْحُرُوفِ الزَّائِدَةِ بِأَشْكَالِهَا الْعَرَبِيَّةِ ، وَضَمِّهَا إِلَى الْأَبْجَدِيَّةِ اللَّاتِينِيَّةِ الْمُقْتَرَحَةِ ؛ بِحَيْثُ يَجْتَمِعُ فِيهَا خَلِيطٌ عَجِيبٌ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُتَنَافِرَةِ فِي الطَّبِيعَةِ وَالشَّكْلِ .

أَمَّا « سَعِيدُ عَقْل » فَرَكِبَ لِتَحْقِيقِ دَعْوَتِهِ مَرْكَباً أَخْشَنَ حَيْثُ كَوَّنَ الْأَبْجَدِيَّةَ الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا فِي كِتَابِهِ « يَارَا » مِنَ الْأَحْرُفِ اللَّاتِينِيَّةِ السِّتَّةِ وَالْعِشْرِينَ ، ثُمَّ أَضَافَ إِلَيْهَا سَبْعَةَ حُرُوفٍ جَدِيدَةٍ اخْتَرَعَهَا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ ضَمَّ إِلَيْهَا أَحَدَ عَشَرَ حَرْفاً لَاتِينِيًّا بَعْدَ أَنْ زَادَ عَلَيْهَا طَائِفَةً مِنَ الْإِشَارَاتِ الْخَاصَّةِ لِتُؤَدِّيَ بَعْضَ الْأَصْوَاتِ ...

وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ عَدَدُ حُرُوفِ الْأَبْجَدِيَّةِ الْمُخْتَرَعَةِ أَرْبَعَةً وَأَرْبَعِينَ حَرْفاً ، وَمَعَ هَذَا فَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّنِي عَجَزْتُ عَنْ قِرَاءَةِ سَطْرٍ وَاحِدٍ مِنْ « يَارَا » بِسَبَبِ اسْتِعْمَالِ الْعَامِّيَّةِ مِنْ جِهَةٍ ، وَبِسَبَبِ الْحُرُوفِ الْمُبْتَدَعَةِ الْمُخْتَرَعَةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى .

* * *

وَأَمْرٌ ثَانٍ يَقِفُ فِي وَجْهِ هَذَا الِاقْتِرَاحِ وَيَقْضِي عَلَى

عِلَّةِ وُجُودِهِ ، وَهُوَ أَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ تُغَايِرُ[1] اللُّغَاتِ الْأُورُبِّيَّةَ الَّتِي تُكْتَبُ بِالْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا لُغَةٌ مُعْرَبَةٌ ... تَخْتَلِفُ أَحْوَالُ أَوَاخِرِ الْكَلِمَاتِ فِيهَا بِاخْتِلَافِ مَوَاقِعِهَا مِنَ الْجُمْلَةِ ...

وَمِنْ هُنَا كَانَتِ الدِّلَالَةُ عَلَىٰ الْحَرَكَاتِ بِالْحُرُوفِ وَإِثْبَاتُهَا فِي صُلْبِ الْكَلِمَةِ تُعَرِّضُ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ قَوَاعِدَ النَّحْوِ لِلْوُقُوعِ فِي فَيْضٍ مِنَ الْخَطَأِ ، وَبِذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُ السَّوَادُ مِنْ شَعْبِنَا ، وَالصِّغَارُ مِنْ تَلَامِيذِنَا أَنْ يَكْتُبُوا كَلِمَةً صَحِيحَةً إِلَّا إِذَا أَدْرَكُوا أَحْكَامَ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ، وَالْحَالِ وَالتَّمْيِيزِ ، وَمَبَاحِثَ الْعَدَدِ ، وَالْمَمْنُوعِ مِنَ الصَّرْفِ ، وَوَقَفُوا عَلَىٰ ضَبْطِ عَيْنِ الْفِعْلِ[2] ، وَأَحْكَمُوا نُطْقَ الْأَسْمَاءِ ، وَبِذَلِكَ تَسُودُ الْعَامِّيَّةُ عَامَّةَ شَعْبِنَا ، وَيُحَالُ دُونَهُمْ وَدُونَ تَعَلُّمِ الْكِتَابَةِ .

* * *

(١) التغاير : هو الاختلاف ، هذا غير ذاك .

(٢) عين الفعل : يزن اللغويون الفعل الثلاثي بحروف ثلاثة هي « ف . ع . ل » وَعين الفعل هو الحرف الأوسط الذي يقابل حرف العين في الميزان ، يقال « شَرِبَ » علىٰ وَزن « فَعِلَ » ، فعينه هي حرف « الراء » .

ج - الضَّرَبَاتُ الْخَفِيَّةِ

لَمَّا أَخْفَقَتْ دَعْوَتَا الْعَامِّيَّةِ وَالْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ الْهَادِفَتَانِ إِلَىٰ الْقَضَاءِ عَلَىٰ لُغَةِ الْقُرْآنِ، وَيَئِسَ الْخُصُومُ مِنْ بُلُوغِ مَقَاصِدِهِمْ عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ عَكَفُوا عَلَىٰ خُطَطِهِمْ يُرَاجِعُونَهَا ...

وَعَادُوا إِلَىٰ مَشْرُوعَاتِهِمْ يُعَدِّلُونَهَا.

فَوَجَدُوا أَنَّ الضَّرْبَةَ الْكُبْرَىٰ قَدْ قُوبِلَتْ بِدِفَاعٍ أَكْبَرَ، فَرَجَّحُوا أَنْ يَعْمَلُوا عَلَىٰ هَدْمِ هَذِهِ اللُّغَةِ بِضَرَبَاتٍ صَغِيرَةٍ تَأْتِيهَا مِنْ بَيْنَ يَدَيْهَا وَمِنْ خَلْفِهَا بَدَلاً مِنْ هَدْمِهَا دَفْعَةً وَاحِدَةً فِي ضَرْبَةٍ قَاضِيَةٍ.

فَرُحْنَا نَسْمَعُ دَعْوَةً إِلَىٰ دِرَاسَةِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ عَلَىٰ أَسَاسٍ إِقْلِيمِيٍّ حَيْثُ يُصْبِحُ بَيْنَ أَيْدِينَا أَدَبٌ «شَامِيٌّ»، وَآخَرُ «عِرَاقِيٌّ»، وَثَالِثٌ «مِصْرِيٌّ»... وَرَابِعٌ «حِجَازِيٌّ»، وَخَامِسٌ «نَجْدِيٌّ»، وَسَادِسٌ «جَزَائِرِيٌّ» وَهَكَذَا ...

وَكَمْ أَحْرَجْنَا هَؤُلَاءِ الدُّعَاةَ حِينَ كُنَّا نَسْأَلُهُمْ عَنْ «أَبِي الطَّيِّبِ» الَّذِي وُلِدَ فِي «الْكُوفَةِ» مِنْ أَرْضِ «الْعِرَاقِ» ... وَغَنَّىٰ أَعْذَبَ أَلْحَانِهِ فِي «حَلَبَ» مِنْ بِلَادِ «الشَّامِ» ... وَصَاغَ أَحْكَمَ قَوَافِيهِ فِي أَرْضِ الْكِنَانَةِ «مِصْرَ» ... وَأَعْطَىٰ أَصْدَقَ تَأَمُّلَاتِهِ فِي بِلَادِ «فَارِسَ» ...

أَهُوَ عِرَاقِيٌّ، أَمْ شَامِيٌّ ؟؟ ...

أَمْ مِصْرِيٌّ، أَمْ فَارِسِيٌّ ؟؟ ...

وَفِي أَدَبِ أَيِّ إِقْلِيمٍ يُمْكِنُ أَنْ يُوضَعَ أَدَبُهُ ؟ ؟ .

وَلَيْسَ «أَبُو الطَّيِّبِ» بِدْعاً فِي ذَٰلِكَ، وَإِنَّمَا يُشَارِيهِ(١) فِي هَذَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ أُدَبَائِنَا الْأَفْذَاذِ مِنْ أَمْثَالِ «أَبِي تَمَّامٍ»، وَ«الْبُحْتُرِيِّ»، وَ«أَبِي الْعَلَاءِ» وَمِئَاتٍ غَيْرِهِمْ مِنَ الْكُتَّابِ وَالشُّعَرَاءِ .

* * *

وَدَعْوَةٌ ثَانِيَةٌ تَحُضُّ عَلَىٰ الْعِنَايَةِ بِالْأَدَبِ الشَّعْبِيِّ ...

---

(١) يشاريه : يجاريه ويزيد عليه في صفاته .

عَلَىٰ أَنَّهُ التُّرْجُمَانُ الَّذِي يُعَبِّرُ عَنْ رُوحِ الْجَمَاهِيرِ ، وَهِيَ دَعْوَةٌ تَهْدِفُ إِلَىٰ إِحْيَاءِ عَامِّيَّةٍ بِطَرِيقٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ .

وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ هَذِهِ الدَّعْوَةَ قَدْ أَثْمَرَتْ ثَمَرَتَهَا الْمَرْجُوَّةَ حِينَ أُنْشِئَ فِي بَعْضِ الْجَامِعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ كُرْسِيٌّ لِتَدْرِيسِ الْأَدَبِ الشَّعْبِيِّ ، فَأَصْبَحَتْ قِصَّةُ الزِّيرِ ، وَعَنْتَرٍ ، وَسَيْفِ بْنِ ذِي يَزَنٍ ، وَتَغْرِيبَةُ بَنِي هِلَالٍ هِيَ الَّتِي تُدْرَسُ فِي هَذَا الْقِسْمِ ...

وَقَدْ نَالَ أَحَدُ شَبَابِنَا لَقَبَ دُكْتُور فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ لِأَنَّهُ قَدَّمَ بَحْثاً عَنْ قِصَّةِ « عَنْتَرٍ » .

وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مُسْتَسَاغاً لَوْ أَنَّنَا انْتَهَيْنَا مِنَ اسْتِخْرَاجِ كُنُوزِنَا الْفَصِيحَةِ كُلِّهَا ، وَفَرَغْنَا مِنْهَا دَرْساً وَبَحْثاً وَتَحْقِيقاً وَإِخْرَاجاً ، حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ لَدَيْنَا إِلَّا قِصَّةُ « عَنْتَرٍ » وَ« الزِّيرِ » وَ« تَغْرِيبَةُ بَنِي هِلَالٍ » ، فَعِنْدَ ذَلِكَ نَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ، وَنَعْكُفُ عَلَيْهَا .

* * *

وَدَعْوَةٌ ثَالِثَةٌ إِلَىٰ اصْطِنَاعِ هَذَا الشِّعْرِ الْمَنْثُورِ الَّذِي

نَسْمَعُهُ صَبَاحَ مَسَاءَ، وَالَّذِي أَفْسَحَتْ لَهُ الْمَجَلَّاتُ وَالْجَرَائِدُ مَكَاناً رَحِيباً عَلَىٰ صَفَحَاتِهَا ... عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ عُزُوفِ النَّاسِ عَنْهُ، وَنُفُورِهِمْ مِنْهُ.

* * *

وَدَعْوَةٌ رَابِعَةٌ تُزَيِّنُ لِلنَّاسِ تَيْسِيرَ النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ، وَذَلِكَ بِإِيجَادِ نَحْوٍ جَدِيدٍ يَقْطَعُ صِلَةَ الْأَبْنَاءِ بِالآبَاءِ، حَيْثُ ظَهَرَ فِي أَحَدِ الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ كِتَابُ نَحْوٍ جَدِيدٍ سَمَّاهُ صَاحِبُهُ «الْأَحْرُفِيَّةُ»؛ فَتَلَقَّتْهُ الصُّحُفُ الْمَشْبُوهَةُ بِالتَّأْيِيدِ، وَتَنَاوَلَتْهُ الْأَقْلَامُ الْمَخْدُوعَةُ بِالتَّقْرِيظِ.

كَمَا ظَهَرَتْ فِي قُطْرٍ عَرَبِيٍّ آخَرَ سِلْسِلَةٌ مِنْ كُتُبِ النَّحْوِ الْمُبْتَدَعِ، وَفُرِضَتْ هَذِهِ السِّلْسِلَةُ عَلَىٰ مَرَاحِلِ التَّعْلِيمِ كُلِّهَا رَدْحاً مِنَ الزَّمَنِ ... وَقَدْ بَلَغَ هَذَا النَّحْوُ حَدّاً مِنَ الْبُعْدِ عَنْ نَحْوِنَا الْمَعْرُوفِ، جَعَلَ عَالِماً كَبِيراً وَمُؤَلِّفاً مِنْ كِبَارِ مُؤَلِّفِي النَّحْوِ، يَقُولُ فِي حَدِيثٍ خَاصٍّ:

أَنَّهُ اضْطُرَّ لِلِاسْتِعَانَةِ بِمُدَرِّسٍ مِنْ مُدَرِّسِي وَزَارَةِ الْمَعَارِفِ لِيُسَاعِدَ أَوْلَادَهُ عَلَىٰ فَهْمِ النَّحْوِ الْجَدِيدِ بَعْدَ أَنْ

عَجزَ هُوَ نَفْسُهُ عَنْ مُسَاعَدَةِ أَوْلَادِهِ فِي ذَلِكَ .

وَقَدْ عَمَدَ الْمَسْئُولُونَ فِي هَذَا الْقُطْرِ إِلَىٰ إِلْغَاءِ هَذَا النَّحْوِ بَعْدَ أَنْ تَصَدَّىٰ الغَيَارَىٰ عَلَىٰ اللُّغَةِ إِلَىٰ كَشْفِ مَسَاوِئِهِ وَبَيَانِ زَيْفِهِ .

* * *

وَدَعْوَةٌ خَامِسَةٌ إِلَىٰ الإِبْقَاءِ عَلَىٰ الْفُصْحَىٰ مَعَ إِلْغَاءِ الإِعْرَابِ مِنْ أَوَاخِرِ الْكَلِمِ ، وَقَدْ وَجَدَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ طَرِيقَهَا إِلَىٰ مَدَارِسِ بَعْضِ الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ .

فَقَدْ كُتِبَتْ لِي زِيَارَةُ أَحَدِ هَذِهِ الْأَقْطَارِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ قَرِيبَةٍ زِيَارَةً رَسْمِيَّةً ، وَأُتِيحَ لِي أَنْ أَزُورَ بَعْضَ مَدَارِسِ هَذَا الْقُطْرِ وَأَنْ أَسْتَجْوِبَ طُلَّابَهُ ، وَكَانَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَوْضُوعٌ يَقْرَؤُونَهُ ، وَكَانَ عُنْوَانُ الْمَوْضُوعِ « مَطَرٌ يُنْبِتُ الذَّهَبَ » وَقَدْ قَرَأَ الطَّالِبُ العُنْوَانَ مُسَكِّناً أَوَاخِرَ كَلِمَاتِهِ الثَّلَاثِ ، عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ مَشْكُولَةً ، فَقَالَ :

« مَطَرْ ينبتْ الذَّهَبْ » .

فَقُلْتُ لَهُ : اشْكِلْ أَوَاخِرَ الْكَلِمَاتِ فَلَمْ يَسْتَجِبْ

لي ، فظَنَنْتُ أَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ مَا قُلْتُهُ لَهُ ، فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ الطَّلَبَ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ بِصِيَغٍ مُخْتَلِفَةٍ اسْتَنْفَدْتُ فِيهَا كُلَّ مَا أَمْلِكُهُ مِنْ قُدْرَةٍ فِي التَّعْبِيرِ ، فَمَا كَانَ مِنْ أَحَدِ مُرَافِقِيَّ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ كِبَارِ رِجَالِ التَّعْلِيمِ ، إِلَّا أَنِ اقْتَرَبَ مِنِّي وَهَمَسَ فِي أُذُنِي قَائِلاً :

إِنَّ هَؤُلَاءِ الطُّلَّابَ لَا يَعْرِفُونَ الدِّلَالَاتِ الصَّوْتِيَّةَ لِلْحَرَكَاتِ ، وَهُمْ يُسَكِّنُونَ أَوَاخِرَ الْكَلِمَةِ فِي الْمَرْحَلَةِ الِابْتِدَائِيَّةِ كُلِّهَا .

وَمِنْ حُسْنِ الْحَظِّ أَنَّ الْمَسْئُولِينَ عَنِ التَّعْلِيمِ فِي هَذَا الْقُطْرِ تَنَبَّهُوا إِلَىٰ خَطَرِ ذَلِكَ ، وَأَصْدَرُوا قَرَارَاتٍ تُوجِبُ أَخْذَ التَّلَامِيذِ بِشَكْلِ أَوَاخِرِ الْكَلِمِ ، وَإِلْزَامِ الْمُعَلِّمِينَ بِذَلِكَ .

* * *

لُغَتُنَا لَيْسَتْ مِلْكاً لِشَعْبٍ بِعَيْنِهِ

قَدْ لَا تَكُونُ هَذِهِ الضَّرَبَاتُ الَّتِي أَشَرْتُ إِلَيْهَا هِيَ جَمِيعُ مَا يَسْتَطِيعُهُ الْخُصُومُ ... وَقَدْ يَكُونُ فِي جُعَبِهِمْ سِهَامٌ أُخْرَىٰ.

وَلَكِنِّي أُقَدِّرُ أَنَّهُمْ غَفَلُوا عَنْ أَنَّ هَذِهِ اللُّغَةَ لَيْسَتْ مِلْكاً لِشَعْبٍ بِعَيْنِهِ ... وَإِنَّمَا هِيَ تُرَاثُ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً عَلَىٰ اخْتِلَافِ دِيَارِهِمْ وَأَقْطَارِهِمْ ... يَنْهَلُونَ مِنْ مَوَارِدِهِ، وَيَتَزَوَّدُونَ مِنْ مَعَارِفِهِ، وَيَتَرَنَّمُونَ بِشِعْرِهِ وَنَثْرِهِ، وَيَتَمَثَّلُونَ بِحِكَمِهِ وَأَمْثَالِهِ، وَيَهْتَدُونَ بِعِبَرِهِ وَعِظَاتِهِ، وَيُغَذُّونَ عَوَاطِفَهُمْ بِمَا وَعَاهُ مِنْ آيَاتِ الْفَنِّ وَالْجَمَالِ ...

وَأَنَّهُمْ أَسْهَمُوا جَمِيعاً عَبْرَ تَارِيخِهِمُ الطَّوِيلِ فِي إِقَامَةِ أَرْكَانِهِ، وَإِحْكَامِ بُنْيَانِهِ ...

وَعَمِلُوا يَداً وَاحِدَةً خِلَالَ الْعَوَاصِفِ الْهُوجِ، وَالْمِحَنِ السُّودِ عَلَىٰ صِيَانَتِهِ مِنْ عَبَثِ الْعَابِثِينَ، وَحِفْظِهِ مِنْ عُدْوَانِ الْعَادِينَ ...

وَبَذَلُوا كُلَّ مَا مَلَكُوهُ مِنْ طَاقَةٍ وَجَهْدٍ لِمَدِّهِ بِأَفْضَلِ مَا أَنْتَجَتْهُ قَرَائِحُهُمْ ، وَتَزْوِيدِهِ بِأَكْرَمِ مَا أَعْطَتْهُ عُقُولُهُمْ ؛ حَتَّىٰ غَدَا عَمَلاً إِنْسَانِيًّا كَبِيراً ، تَعْتَزُّ بِهِ الْأُمَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ وَتَفْخَرُ بِهِ ، وَيَشْعُرُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَبْنَائِهَا أَنَّ هَذَا التُّرَاثَ قِطْعَةٌ مِنْ كِيَانِهِ ، وَبُضْعَةٌ مِنْ فُؤَادِهِ ، وَوَسِيلَةٌ إِلَىٰ بَقَائِهِ ، لِأَنَّ فِيهِ حَقِيقَتَهُ وَحَقِيقَةَ أُمَّتِهِ .

وَإِنَّ تُرَاثاً هَذَا شَأْنُهُ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْتَدَّ إِلَيْهِ يَدٌ بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ .

وَأَيُّ تَغْيِيرٍ فِي أُسُسِهِ هُوَ مِنْ حَقِّ شُعُوبِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا يَوْمَ يَجْتَمِعُونَ ...

وَهُمْ يَوْمَ يَجْتَمِعُونَ وَيَتَوَحَّدُونَ سَيَكُونُونَ أَشَدَّ حِرْصاً عَلَىٰ لُغَتِهِمْ مِنْ أَيِّ يَوْمٍ سَلَفَ ...

لِأَنَّهُمْ سَيَعْلَمُونَ آنذَاكَ أَنَّ اللُّغَةَ هِيَ الَّتِي يَسَّرَتْ لَهُمْ نِعْمَةَ الْوَحْدَةِ فَيَغْدُونَ أَشَدَّ اسْتِمْسَاكاً بِهَا ، وَأَعْظَمَ حِرْصاً عَلَيْهَا ، وَأَكْثَرَ بِرًّا بِهَا .

* * *

تَفَرُّدُ لُغَتِنَا وَتَمَيُّزُهَا

إِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ أُعْجُوبَةُ الأَعَاجِيبِ فِي وَضْعِهَا الْمُحْكَمِ وَبِنَائِهَا الدَّقِيقِ الْمُنَظَّمِ ، فَمَنْ أُتِيحَ لَهُ أَنْ يَسْتَجْلِيَ غَوَامِضَهَا وَيَقِفَ عَلَىٰ دَقَائِقِهَا أَيْقَنَ أَنَّ هَذِهِ اللُّغَةَ الكَرِيمَةَ قَدْ وُضِعَتْ بِإِلْهَامِ الحَكِيمِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَعَلَتْ كَلِمَتُهُ .

وَلَيْس عَلَىٰ مَنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَىٰ غِنَىٰ لُغَةِ الْقُرْآنِ ، وَالِاسْتِيثَاقَ[1] مِنْ مَبْلَغِ قُدْرَتِهَا عَلَىٰ التَّعْبِيرِ عَنْ شُئُونِ الْحَيَاةِ الْمُخْتَلِفَةِ ، إِلَّا أَنْ يَقِفَ عَلَىٰ وَاحِدٍ مِنْ عَشَرَاتِ مُعْجَمَاتِ الْمَعَانِي الَّتِي حَفِلَتْ بِهَا الْمَكْتَبَةُ الإِسْلَامِيَّةُ ، وَأَنْ يَتَصَفَّحَ فَهَارِسَ هَذِهِ الْمُعْجَمَاتِ ...

فَإِنَّهُ سَيَجِدُ فِيهَا مِنْ غِنَىٰ الْمُفْرَدَاتِ ، وَوَفْرَةِ الدِّلَالَاتِ ، وَدِقَّةِ التَّعْبِيرِ ، وَبَرَاعَةِ التَّصْوِيرِ ، مَا يُذْهِلُ لُبَّهُ[2] .

---

(١) الاستيثاق : التأكد من حقيقة الشيء .

(٢) يذهل لبه : اللب هو العقل ، وذهول اللب شدة تحيره .

وَلَوْ أَخَذْنَا - عَلَىٰ سَبِيلِ المِثَالِ - مَا جَاءَ مِنْ أَثَرِ الْأَشْيَاءِ عَلَىٰ الْيَدِ لَوَجَدْنَا الْعَرَبَ تُفَرِّقُ بَيْنَ هَٰذِهِ الآثَارِ تَفْرِيقاً عَزَّ أَنْ تَجِدَ لَهُ نَظِيراً فِي أَيَّةِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ ، فَالْعَرَبُ تَقُولُ :

يَدُ فُلَانٍ مِنَ اللَّحْمِ غَمِرَةٌ ... وَمِنَ الزَّيْتِ قَنِمَةٌ ...

وَمِنَ السَّمَكِ صَمِرَةٌ ... وَمِنَ الشَّحْمِ زَهِمَةٌ ...

وَمِنَ الْبَيْضِ زَهِكَةٌ ... وَمِنَ الدُّهْنِ زَنِخَةٌ ...

وَمِنَ الخَلِّ خَمِطَةٌ ... وَمِنَ الْعَسَلِ لَزِجَةٌ ...

وَمِنَ الْفَاكِهَةِ لَزِقَةٌ ... وَمِن الدَّمِ ضَرِجَةٌ ...

وَمِنَ الْمَاءِ لَثِقَةٌ ... وَمِنَ الْحَدِيدِ سَهِكَةٌ ...

وَمِنَ الْبَوْلِ وَشِكَةٌ ... وَمِنَ الْوَسَخِ دَرِنَةٌ .

« وَكُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ وَزْنِ فَعِلَةٌ » (١) إِلَىٰ آخِرِ مَا وَعَتْهُ كُتُبُ اللُّغَةِ فِي هَذَا الْبَابِ وَهُوَ كَثِيرٌ كَثِيرٌ .

---

(١) فقه اللُّغَة : ٨٨.

كَمَا فَصَّلَتِ الْعَرَبُ الْكَلَامَ عَلَىٰ الْأَمْوَالِ وَأَنْوَاعِهَا وَجَعَلَتْ لِكُلِّ نَوْعٍ اسْماً خَاصًّا بِهِ :

فَإِذَا كَانَ الْمَالُ مَوْرُوثاً فَهُوَ : تِلَادٌ .

فَإِذَا كَانَ مُكْتَسِباً فَهُوَ : طَارِفٌ .

فَإِذَا كَانَ مَدْفُوناً فِي الْأَرْضِ فَهُوَ : رِكَازٌ .

فَإِذَا كَانَ ذَهَباً وَفِضَّةً فَهُوَ : صَامِتٌ .

فَإِذَا كَانَ إِبِلاً وَغَنَماً فَهُوَ : نَاطِقٌ .

فَإِذَا كَانَ ضَيْعَةً وَمُسْتَغَلًّا فَهُوَ : عَقَارٌ .

وَفِي أَسْمَاءِ الْحُمَّيَاتِ قَالَتِ الْعَرَبُ :

إِذَا كَانَتِ الْحُمَّىٰ لَا تَدُورُ بَلْ تَكُونُ نَوْبَةً وَاحِدَةً فَهِيَ : حُمَّىٰ يَوْمٍ ... فَإِذَا كَانَتْ نَائِبَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ فَهِيَ : الْوِرْدُ ... فَإِذَا كَانَتْ تَنُوبُ يَوْماً وَيَوْماً لَا فَهِيَ : الغِبُّ ... فَإِذَا كَانَتْ تَنُوبُ يَوْماً وَيَوْمَيْنِ لَا ، ثُمَّ تَعُودُ فِي الرَّابِعِ فَهِيَ : الرِّبْعُ ... فَإِذَا دَامَتْ وَأَقْلَقَتْ وَلَمْ تُقْلِعْ ، فَهِيَ : الْمُطْبِقَةُ ... فَإِذَا قَوِيَتْ وَاشْتَدَّتْ حَرَارَتُهَا وَلَمْ تُفَارِقِ

البَدَنَ فَهِيَ : الْمُحْرِقَةُ ... فَإِذَا دَامَتْ مَعَ الصُّدَاعِ أَوِ الثِّقَلِ فِي الرَّأْسِ ، وَالحُمْرَةِ فِي الْوَجْهِ وَكَرَاهَةِ الضَّوْءِ فَهِيَ : البِرْسَامُ .

وَغِنَىٰ الْعَرَبِيَّةِ هَذَا لَيْسَ وَقْفاً عَلَىٰ شُؤُونِ الْحَيَاةِ الْمَادِيَّةِ وَحْدَهَا ؛ وَإِنَّمَا هُوَ مُتَوَافِرٌ فِي الشُّئُونِ المَعْنَوِيَّةِ أَيْضاً .

فَالشَّجَاعَةُ لَهَا عِنْدَ الْعَرَبِ دَرَجَاتٌ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ لَفْظٌ خَاصٌّ بِهَا ...

وَالْجُودُ لَهُ مَرَاتِبُ وَلِكُلِّ مَرْتَبَةٍ كَلِمَةٌ تُؤَدِّيهَا ...

وَالْغَضَبُ لَهُ مَرَاحِلُ وَلِكُلِّ مَرْحَلَةٍ حَرْفٌ يُعْرِبُ عَنْهَا . وَهَكَذَا ...

وَمَنْ يَقِفْ عَلَىٰ كُتُبِ « فِقْهِ اللُّغَةِ » يَجِدْ لِكُلِّ مَعْنًى يَجُولُ فِي ذِهْنِهِ لَفْظاً ، وَلِكُلِّ سُؤَالٍ يَدُورُ فِي خَلَدِهِ[١] جَوَاباً .

---

(١) الخَلَد : البال وَالنفس .

وَقَدْ يَقُولُ فَرِيقٌ مِمَّنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ :

إِنَّنَا لَا نُمَارِي [١] فِي قُدْرَةِ هَذِهِ اللُّغَةِ عَلَىٰ الْوَفَاءِ بِمَطَالِبِ الإِنْسَانِ المَعَاشِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ ، وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ لِهَذِهِ اللُّغَةِ أَنْ تَفِيَ بِحَاجَاتِ عَصْرِ الذَّرَّةِ وَالْفَضَاءِ ؟!! ...

وَهِيَ لُغَةٌ نَبَتَتْ أُصُولُهَا فِي الصَّحْرَاءِ ...

وَنَمَتْ فُرُوعُهَا فِي بِيئَاتٍ لَمْ تُدْرِكْ عَصْرَ الْبُخَارِ وَالْكَهْرَبَاءِ ... فَضْلاً عَنْ عَصْرِ الذَّرَّةِ وَالْفَضَاءِ .

وَلِهَؤُلَاءِ نَقُولُ :

مَا إِنْ عَادَتِ الْمَرْكَبَةُ الْقَمَرِيَّةُ الَّتِي أَطْلَقَهَا « الْأَمْرِيكَانُ » إِلَىٰ أُمِّهَا الْأَرْضِ ، وَقَبْلَ أَنْ تَصْحُوَ الْبَشَرِيَّةُ مِنْ دَهْشَتِهَا وَذُهُولِهَا ... كَتَبَ الْعَالِمُ الْأَدِيبُ الدُّكْتُورُ « أَحْمَد زَكِي » فِي مَجَلَّةِ « الْعَرَبِيّ » بَحْثاً قَيِّماً شَيِّقاً مُسْتَفِيضاً عَنْ هَذَا الْحَدَثِ الْعَظِيمِ ...

عَبَّرَ فِيهِ بِلُغَةٍ عِلْمِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ فَصِيحَةٍ عَنْ حَقَائِقِ هَذِهِ

---

(١) لا نماري : لا نشك .

الرِّحْلَةِ وَدَقَائِقِهَا تَعْبِيراً يُخَيَّلُ مَعَهُ لِلْمَرْءِ أَنَّنَا نَحْنُ الَّذِينَ صَنَعْنَا مَرْكَبَةَ الْفَضَاءِ لَا « الأَمْرِيكَانُ » ...

وَأَنَّنَا نَحْنُ الَّذِينَ صَعِدْنَا إِلَىٰ القَمَرِ لَا هُمْ .

وَهُوَ مَقَالٌ يَدُلُّ عَلَىٰ بَرَاعَةِ كَاتِبِهِ مِنْ جِهَةٍ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَىٰ عَبْقَرِيَّةِ لُغَةِ الْقُرْآنِ ، وَقُدْرَتِهَا غَيْرِ الْمَحْدُودَةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ .

* * *

وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ إِلَىٰ هَذَا لُغَةٌ ذَاتُ صِيَغٍ ثَابِتَةِ النُّطْقِ ، مَعْلُومَةِ الدِّلَالَةِ ، فَمَا دَلَّ عَلَىٰ مَنْ قَامَ بِالفِعْلِ مِنَ « الثُّلَاثِيِّ »(١) صِيغَ عَلَىٰ وَزْنِ « فَاعِلٍ » :

كَعَابِدٍ ، وَحَامِدٍ ، وَشَاكِرٍ ...

وَمَا دَلَّ عَلَىٰ مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ الْفِعْلُ صِيغَ عَلَىٰ وَزْنِ « مَفْعُولٍ » : كَمَعْبُودٍ ، وَمَحْمُودٍ ، وَمَشْكُورٍ .

وَمَا يُقَالُ فِي اسْمِ الْفَاعِلِ ، وَاسْمِ الْمَفْعُولِ ...

---

(١) الفعل الثلاثي : هو الفعل المكون من ثلاثة أحرف .

يُقَالُ فِي اسْمِ الزَّمَانِ ، وَالْمَكَانِ ، وَالْآلَةِ ، وَالتَّعَجُّبِ ، وَالتَّفْضِيلِ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ تَتَمَتَّعُ بِخَاصَّةِ الِاشْتِقَاقِ الَّتِي حُرِمَتْ مِنْهَا جُلُّ اللُّغَاتِ الحَيَّةِ ... وَهِيَ خَاصَّةٌ جَعَلَتْ مِنْ لُغَةِ الضَّادِ لُغَةً مَنْطِقِيَّةً ، مِمَّا أَدَّىٰ إِلَىٰ ضَبْطِ نِظَامِهَا ، وَاطِّرَادِ[1] أَحْكَامِهَا ، وَإِغْنَاءِ مَادَّتِهَا ، وَجَعْلِهَا لُغَةً وَلُوداً عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ .

فَالِاشْتِقَاقُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ أَلْفَاظَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَتَجَمَّعُ فِي أُسَرٍ ... وَجَعَلَ لِكُلِّ أُسْرَةٍ حُرُوفاً مُشْتَرَكَةً تَتَوَافَرُ فِي جَمِيعِ أَفْرَادِهَا ... وَمَعْنًى عَامًّا مُشْتَرَكاً يَشِعُّ مِنْ سَائِرِ مُفْرَدَاتِهَا ...

ثُمَّ تَنْفَرِدُ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَاتِ الْأُسْرَةِ بِصِيغَةٍ خَاصَّةٍ تُمَيِّزُهَا عَمَّا عَدَاهَا ، وَبِمَعْنًى جُزْئِيٍّ تَخْتَصُّ بِهِ مِنْ دُونِ أَخَوَاتِهَا ...

---

(١) الاطراد : هو التتابع والتسلسل .

بَيْنَمَا غَلَبَتِ الْفَرْدِيَّةُ عَلَىٰ اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ .

فَلْنَأْخُذْ ـ مَثَلاً ـ مَادَّةَ « النَّشْرِ » فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَسَوْفَ نَجِدُ أَنَّ فِي وُسْعِنَا أَنْ نَشْتَقَّ مِنْهَا الْأَفْعَالَ الثَّلَاثَةَ :

نَشَرَ ، وَيَنْشُرُ ، وَانْشُرْ ...

كَمَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُوَلِّدَ مِنْهَا اسْمَ الْفَاعِلِ « نَاشِرٌ » ، وَاسْمَ الْمَفْعُولِ « مَنْشُورٌ » ، وَاسْمَ الآلَةِ « مِنْشَارٌ » ، وَاسْمَ الْمَكَانِ « مَنْشَرٌ » وَهَكَذَا ...

بَيْنَمَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجِدَ فِي اللُّغَةِ « الْفَرَنْسِيَّةِ » مَثَلاً صِلَةً بَيْنَ الأَخِ وَأُخْتِهِ ، فَالأَخُ فِي الفَرَنْسِيَّةِ Frère وَالأُخْتُ Soeur وَهُمَا كَلِمَتَانِ مُتَنَافِرَتَانِ فِي النُّطْقِ مُتَنَاكِرَتَانِ فِي الصِّيغَةِ لَا تَمُتُّ إِحْدَاهُمَا إِلَىٰ الْأُخْرَىٰ بِسَبَبٍ .

وَمَا يُقَالُ عَنِ « الْفَرَنْسِيَّةِ » يُقَالُ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً عَنِ « الإِنْكِلِيزِيَّةِ » ، فَهِيَ لُغَةُ الْفَرْدِيَّةِ وَالشُّذُوذِ .

* * *

وَأَمَّا قَضِيَّةُ جُمُودِ هَذِهِ اللُّغَةِ وَعَدَمِ تَطَوُّرِهَا مَعَ الزَّمَنِ - كَمَا يُرْجِفُ الْمُرْجِفُونَ[1] - فَتِلْكَ قَضِيَّةٌ بَاطِلَةٌ وَدَعْوَةٌ تَبْدُو عَلَىٰ ظَاهِرِهَا مَلَامِحُ الرَّحْمَةِ ، وَتَكْمُنُ فِي بَاطِنِهَا صُنُوفُ الْعَذَابِ .

فَلَقَدْ أَمَضَّ[2] أَعْدَاءَ هَذِهِ اللُّغَةِ أَنْ تَكُونَ اللُّغَةَ الْوَحِيدَةَ بَيْنَ لُغَاتِ الْأَرْضِ الَّتِي اتَّصَلَ تَلِيدُ[3] تُرَاثِهَا بِطَرِيفِهِ خِلَالَ خَمْسَةَ عَشَرَ قَرْناً ...

امْتَدَّتْ مُنْذُ « النَّابِغَةِ »[4] فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَىٰ « شَوْقِي »[5] فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ ، وَالَّتِي يَسْتَطِيعُ الْمَلَايِينُ مِنْ أَبْنَائِنَا فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَقِرَاءَةَ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ ، وَأَنْ يَفْقَهُوا مَعَانِيَهُمَا ،

---

(١) المرجفون : الذين يأتون بأخبار كاذبة وأقوال سيئة بقصد إثارة الفتنة .

(٢) أمض : آلم أشد الألم .

(٣) التليد : القديم العريق .

(٤) النابغة الذبياني : هو زياد بن معاوية من فحول شعراء الجاهلية ، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق « عكاظ » فتقصده الشعراء وتعرض عليه أشعارها تُوفي نحو ١٨ قبل الهجرة .

(٥) أحمد شوقي : « ١٨٦٨ - ١٩٣٢م » من أشهر شعراء العصر الأخير ولقب بأمير الشعراء ، وهو أول من جود القصص الشعري التمثيلي بالعربية .

وَأَنْ يُدْرِكُوا هَدْيَهُمَا ، وَأَنْ يَسْتَشْعِرُوا عَظَمَتَهُمَا ، وَأَنْ يَتَمَلَّوْا مِمَّا حَفِلَا بِهِ مِنْ صَلَاحٍ ، وَإِصْلَاحٍ .

وَأَنْ يَقِفَ هَؤُلَاءِ الأَبْنَاءُ عَلَىٰ الْآثَارِ الَّتِي خَلَّفَهَا « زُهَيْرٌ »[1] فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَ« عَلِيٌّ »[2] فِي صَدْرِ الإِسْلَامِ ، وَ« عَبْدُ الْحَمِيدِ »[3] زَمَنَ بَنِي « أُمَيَّةَ » ، وَأَبُو تَمَّامٍ وَالْمُتَنَبِّي فِي عَصْرِ بَنِي « الْعَبَّاسِ » ، وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنْ أُمَرَاءِ الْبَيَانِ ...

وَأَنْ يَنْتَفِعُوا مِمَّا فِي هَذِهِ الْآثَارِ مِنْ مَوْعِظَةٍ وَحِكْمَةٍ ، وَأَنْ يَتَذَوَّقُوا مَا حَفِلَتْ بِهِ مِنْ فَنٍّ وَجَمَالٍ ...

وَأَنْ يَعِيشُوا التَّجَارِبَ الَّتِي مَرَّتْ بِأَسْلَافِهِمُ العِظَامِ ، وَأَنْ يَحْيَوْا مَعَهُمْ بِعَوَاطِفِهِمْ وَمَشَاعِرِهِمْ وَعُقُولِهِمْ ...

---

(١) هو زهير بن أبي سُلمىٰ ، شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات ، يعتبر من أشعر شعراء عصره .

(٢) عَليٌّ : هو عَليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه .

(٣) هو عبد الحميد الكاتب تُوفي سنة ٧٥٠م ، أول من أنشأ أسلوب الرسائل في الأدب الْعَرَبِيّ ، عمل في بلاط الأمويين ، وَخدم مروان بن محمد آخر خلفائهم ، وَله ست رسائل أشهرها « رسالة إلىٰ الكتاب » امتاز بلغة متينة وَأسلوب رائع .

وَأَنْ يَجْعَلُوا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مَرَاكِزَ اِلْتِقَاءٍ يَجْتَمِعُونَ عِنْدَهَا وَيَتَعَارَفُونَ عَلَىٰ صَعِيدِهَا ... بَيْنَمَا لَا يَسْتَطِيعُ سَوَادُ الشُّبَّانِ الْمُثَقَّفِينَ مِنَ «الْإِنْكِلِيزِ» مَثَلاً قِرَاءَةَ مَا كَتَبَهُ «شِكْسِبِيرُ»(١) مُنْذُ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ وَعُسْرٍ.

أَمَا مَا كُتِبَ قَبْلَ «شِكْسِبِيرَ»، فَقَدْ اسْتَحَالَ عَلَيْهِمْ فَهْمُهُ، وَحَالَ دُونَهُمْ وَدُونَهُ ذَلِكَ التَّطَوُّرُ الَّذِي يَدْعُونَنَا إِلَيْهِ، وَيَحُضُّونَنَا عَلَىٰ الْأَخْذِ بِهِ.

وَقَدْ فُتِنَ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ تَطْوِيرِ هَذِهِ اللُّغَةِ نَفَرٌ كَبِيرٌ مِنْ أَبْنَاءِ أُمَّتِنَا وَهُمْ نَاسُونَ أَوْ مُتَنَاسُونَ مَا جَرَّهُ تَطَوُّرُ اللُّغَاتِ الْأُورُبِّيَّةِ عَلَىٰ أَصْحَابِهَا مِنْ بَلَاءٍ، حَيْثُ قَطَّعَ أَوْصَالَهَا، وَمَزَّقَ وَحْدَتَهَا ...

وَجَعَلَهَا أُمَماً مُتَعَدِّدَةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ أُمَّةً وَاحِدَةً.

* * *

(١) وليم شكسبير William Shakespear: «١٥٦٤ - ١٦١٦م» يعتبر من أعظم الشعراء الإنكليز بلا استثناء، وضع عدداً من المسرحيات الشعرية الخالدة.

حَقُّ أَبْنَائِنَا عَلَيْنَا

وَبَعْدُ ... فَقَدْ أَوْصَلَ إِلَيْنَا الْآبَاءُ وَالْأَجْدَادُ هَذِهِ اللُّغَةَ كَامِلَةً مِنْ غَيْرِ نَقْصٍ ، سَلِيمَةً مِنْ غَيْرِ عِوَجٍ ...

وَذَادُوا[1] عَنْهَا خِلَالَ المِحَنِ وَالْكَوَارِثِ أَكْرَمَ الذَّوْدِ ... فَمِنْ حَقِّ أَبْنَائِنَا عَلَيْنَا أَنْ نُؤَدِّيَ إِلَيْهِمُ الْأَمَانَةَ كَامِلَةً ، وَأَنْ نُبَلِّغَهُمُ الرِّسَالَةَ تَامَّةً ، وَأَنْ نُجَاهِدَ مِنْ أَجْلِهِمْ كَمَا جَاهَدَ آبَاؤُنَا مِنْ أَجْلِنَا .

إِنَّ مِنْ حَقِّ أَبْنَائِنَا عَلَيْنَا أَنْ نُسْكِتَ الْأَفْوَاهَ الَّتِي دَأَبَتْ[2] عَلَىٰ تَشْكِيكِهِمْ بِلُغَتِهِمْ ، وَجَهَدَتْ عَلَىٰ وَصْفِهَا بِالصُّعُوبَةِ وَنَعْتِهَا بِالْعُسْرِ ، حَتَّىٰ سَاءَ ظَنُّهُمْ بِهَا ، وَقَلَّتْ ثِقَتُهُمْ بِصَلَاحِهَا ، وَرَسَخَ فِي أَذْهَانِهِمْ أَنَّهُمْ جِيلٌ مُبْتَلًى بِهَذِهِ اللُّغَةِ ، مَكْدُودٌ[3] فِي تَعَلُّمِهَا ، مُحَمَّلٌ مِنْ أَجْلِهَا مَا لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ .

---

(١) ذادوا : دافعوا عن الشيء وَاستماتوا في حمايته .
(٢) الدأب : هو الجد في العمل وَالتعود عليه بلا ملل .
(٣) المكدود : المتعب المغلوب علىٰ أمره .

إِنَّ مِنْ حَقِّ أَبْنَائِنَا عَلَيْنَا أَنْ نُكَافِحَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُحَاوِلُونَ أَنْ يَضَعُوا عَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً تَحْجُبُهُمْ عَنْ رُؤْيَةِ الأُمُورِ عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا ... وَتُشْعِرُهُمْ بِأَنَّ الْحَيَاةَ كُلَّهَا سُهُولَةٌ وَيُسْرٌ ، وَأَنَّ عَلَىٰ الأَشْيَاءِ أَنْ تَتَخَلَّىٰ عَنْ طَبَائِعِهَا مِنْ أَجْلِ مَرْضَاتِهِمْ ، وَأَنَّ فِي مَيَادِينِ الْعَيْشِ أَمْكِنَةً رَحِيبَةً لِغَيْرِ أَصْحَابِ الدَّأَبِ وَالْجِدِّ .

إِنَّ مِنْ حَقِّ أَبْنَائِنَا عَلَيْنَا أَنْ نُيَسِّرَ لَهُمْ تَعَلُّمَ هَذِهِ اللُّغَةِ لَا أَنْ نُمَنِّيَهُمْ بِتَيْسِيرِ اللُّغَةِ نَفْسِهَا ، وَأَنْ نُعْنَىٰ بِهَذِهِ اللُّغَةِ عِنَايَةً كَافِيَةً فِي مَدَارِسِنَا ، وَأَنْ يَتَعَاوَنَ مُعَلِّمُونَا وَمُدَرِّسُونَا جَمِيعاً عَلَىٰ تَعْلِيمِهَا مَهْمَا اخْتَلَفَتْ مَوَادُّهُمْ ، وَأَلَا يَكِلُوهَا إِلَىٰ دَرْسِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَمُعَلِّمِهَا وَحْدَهُمَا ، فَإِنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ مَضَتْ قُرُونٌ عَدِيدَةٌ قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ الْفُصْحَىٰ لُغَةَ الْكِتَابِ وَالْخِطَابِ ...

وَأَنْ يَضَعُوا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ أَنَّ اللُّغَةَ لَا تُعَلَّمُ إِلَا بِالْمُمَارَسَةِ وَالْمُحَاكَاةِ ، وَأَنَّ تِلْمِيذَهُمْ يَأْخُذُ لُغَتَهُ عَنْهُمْ جَمِيعاً ، وَأَنَّهُ كَائِنٌ يُحِسُّ الْجَمَالَ فِي التَّعْبِيرِ كَمَا

يُحِسُّهُ فِي الأَشْيَاءِ الأُخْرَىٰ ، وَأَنَّ بِاسْتِطَاعَةِ أَيٍّ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ أَوْفَرَ نَصِيباً فِي تَعْلِيمِ اللُّغَةِ لِتَلامِيذِهِ مِنْ مُعَلِّمِ اللُّغَةِ نَفْسِهَا إِذَا هُوَ عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَىٰ ذَلِكَ وَسَعَىٰ لَهُ سَعْيَهُ .

إِنَّ مِنْ حَقِّ أَبْنَائِنَا عَلَىٰ رِجَالِ الدَّوْلَةِ أَنْ يُوقِنُوا أَنَّنَا إِذَا عَوَّلْنَا عَلَىٰ الْمَدْرَسَةِ وَحْدَهَا فِي تَعْلِيمِ اللُّغَةِ فَقَدْ تَمْضِي مِائَةُ عَامٍ قَبْلَ أَنْ تَضِيقَ الشُّقَّةُ بَيْنَ الْفُصْحَىٰ وَالْعَامِّيَّةِ ...

وَأَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ فِي وَسَائِلِ الإِعْلَامِ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ تَعْلِيمِ الْفُصْحَىٰ مَا لَا تَمْلِكُهُ الْمَدَارِسُ ...

وَمِنْ هُنَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُحَرِّمُوا عَلَيْهَا اسْتِعْمَالَ الْعَامِّيَّةِ تَحْرِيماً قَاطِعاً ، وَأَنْ يَحْمِلُوهَا عَلَىٰ اسْتِعْمَالِ الْفُصْحَىٰ فِي جَمِيعِ مَا يُذَاعُ مِنْ تَمْثِيلِيَّاتِنَا ، وَمَا يُبَثُّ مِنْ بَرَامِجِنَا ، وَمَا تُقَدِّمُهُ الْمَسَارِحُ وَدُورُ « السِّينِمَا » لِرُوَّادِهَا مِنْ رِوَايَاتٍ وَمَسْرَحِيَّاتٍ ...

حَتَّىٰ لَا يَسْمَعَ النَّاشِئَةُ مِنْهَا مَا يُفْسِدُ عَلَيْهِمْ لُغَتَهُمْ ، وَيُشَوِّهُ لَهُمْ نُطْقَهُمْ ، وَيُمَكِّنُ لِلْعَامِّيَّةِ مِنْ أَلْسِنَتِهِمْ .

إِنَّ مِنْ حَقِّ أَبْنَائِنَا عَلَىٰ الْحُكُومَاتِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ تَسُنَّ قَوَانِينَ تُلْزِمُ الْمُؤَلِّفِينَ وَالْمُتَرْجِمِينَ بِاسْتِعْمَالِ الْفُصْحَىٰ فِي كُلِّ مَا يُقَدِّمُونَهُ لِلنَّاسِ ، وَأَلَّا تَسْمَحَ بِنَشْرِ كِتَابٍ مَهْمَا كَانَتْ صِبْغَتُهُ إِلَّا إِذَا خَضَعَ لِقَوَاعِدِ اللُّغَةِ ، وَجَرَىٰ عَلَىٰ أَسَالِيبِهَا ...

وَأَنْ تَحُولَ دُونَ صُدُورِ الْكُتُبِ الَّتِي تَدْعُو إِلَىٰ التَّحَلُّلِ مِنَ الْفُصْحَىٰ وَتَحُضُّ عَلَىٰ التَّرَخُّصِ فِي أَسَالِيبِهَا ، وَتُرَوِّجُ لِلْعَامِّيَّةِ وَتَعْمَلُ عَلَىٰ نَشْرِهَا ، وَأَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ هَذَا الْمَوْضُوعِ كَمَا تَنْظُرُ إِلَىٰ أَيِّ عَمَلٍ تَخْرِيبِيٍّ يَمَسُّ كِيَانَ الدَّوْلَةِ وَسَلَامَةَ الأُمَّةِ .

إِنَّ مِنْ حَقِّ أَبْنَائِنَا عَلَيْنَا أَنْ يُؤْمِنَ أُدَبَاؤُنَا وَحَمَلَةُ الأَقْلَامِ مِنَّا بِأَنَّ لَهُمُ الْيَوْمَ رِسَالَةً لُغَوِيَّةً إِلَىٰ جَانِبِ رِسَالَتِهِمُ الْفِكْرِيَّةِ ، وَأَنَّ هَذِهِ الرِّسَالَةَ تُحَتِّمُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْثِرُوا الْفَصِيحَ مِنَ الْقَوْلِ وَلَوْ كَانَ مَجْفُوًّا عَلَىٰ الْفَاسِدِ وَلَوْ كَانَ مَأْلُوفاً ، حَتَّىٰ يَأْلَفَ الأَبْنَاءُ أَسَالِيبَ لُغَتِهِمُ الصَّافِيَةَ ...

وَبِذَلِكَ تَنْسَابُ لُغَةُ الْقُرْآنِ عَلَىٰ كُلِّ شَفَةٍ ، وَتَتَرَدَّدُ

عَلَىٰ كُلِّ مَسْمَعٍ ، وَيُتَرَنَّمُ بِهَا فِي كُلِّ مَحْفِلٍ ...

فَتَنْشَغِلُ بِهَا النُّفُوسُ ، وَتَسْتَمْتِعُ بِهَا الْأَفْئِدَةُ ، وَتَأْنَسُ بِهَا الْأَذْوَاقُ ...

فَتُصْبِحُ فِي غَدِهَا الْقَرِيبِ كَمَا كَانَتْ فِي أَمْسِهَا الْبَعِيدِ خَيْرَ لُغَةٍ لِخَيْرِ أُمَّةٍ .

وَاللَّهَ نَسْأَلُ أَنْ يَرْزُقَنَا الْإِخْلَاصَ فِي الْفِكْرِ وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ...

وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً .

* * *

الفهرس

* * *

كتب للمؤلف

- نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد .
- شعر الطَّرد «إلىٰ نهاية القرن الثالث الهجري» .
- علي بن الـجَهْم «حياته وشعره» .
- صور من حياة الصحابة .
- صور من حياة الصحابيات .
- صور من حياة التَّابعين .
- الدِّين القيم .
- أرض البطولات .
- البطولة .
- الصَّيد عند العرب «أدواته وطرقه ـ حيوانه الصائِد والمصِيد» .

* * *